حبٌّ مع وقف التَّنفيذ

رواية

مؤمنة محمود

حبٌّ مع وقف التَّنفيذ

أحبُّكَ حبَّاً لو توزَّع على أهل الأرض لصنع

سلاماً

مؤمنة محمود

تدقيق

راما عيسى محمد

رقم الإيداع

٤٢٩٤

الإهداء

إلى التي وُلدت من الرَّحم ذاته الذي أنجبني

فكانت لي أختاً وصديقةً.. ونوراً لعينيَّ قد خُلقت

نبراساً لدربي كانت.. وأملاً لحياتي القادمة

هي توأمُ روحي.. وعقلٌ لأفكاري.. ونبضٌ ينبض

في قلبي

إلى منى أميرتي وأختي

أُهديها كتابي "حبٌّ مع وقف التَّنفيذ"

كطائرةٍ ورقيَّةٍ ربطت بخيط في إصبعك

أطير عالياً في السَّماء.. بعيدةً عنك أطير

دون أن تسأل عمَّا فعلت الرِّياحُ بي.. ولا

الشَّمسُ الحارقةُ أو حتى عصافيرُ الدُّوري المُشاغبة

كلُّ ما كنتَ تفعلُهُ هو شدُّ الخيط بين الفينة

والأُخرى، لتتأكَّد بأنَّك مازلت تملكُني

(موعدٌ مع الحياة)

كفراشةٍ فارشةٍ جناحيها بوسع الفضاء كانت

إلى أن أتاها هو

كسر جناحيها.. وقيَّدها بأغلاله

لم يتبقَّ على موعد الامتحانات سوى أيامٍ قلائلَ لتبدأ سلامُ رحلةَ دراسةٍ قاسيةٍ بعضَ الشَّيء. من أين تبدأ؟ لا تدري.. بدأت باللُّغة العربيَّة، قرَّرت دراسة الموادِّ الأدبيَّة أوَّلاً؛ لشغفها بها.

آهٍ.. لقد تأخرَّت كثيراً، كان عليها أن تبدأ الدِّراسة منذُ أكثر من شهرٍ. الآن ستضع برنامجاً سريعاً لتدرس بناء عليه، وهي تعلم أنَّهُ سيفوتها الكثير، وأنها لن تلحق بالكثير، ولكن أن تصل متأخّراً خيرٌ من ألَّا تصل أبداً. هذه كانت حكمتها في الحياة، وعلى نهجها تسير.

لن تستقبل أيّ طارقٍ يطرقُ باب غرفتها، حتَّى إنَّ الطَّعام سيأتيها إلى طاولتها، ممنوعٌ عليها الخروجُ من الغرفة سوى لقضاء حاجتها. سنَّت والدتُها هذه القوانين لتتجاوز امتحانات الشَّهادة الإعداديَّة خوفاً عليها من فشلٍ لن يرحمَها.

بدأت سلام الدِّراسة بجدٍّ كي لا تُخيّبَ ظنَّ والدتها التي علقت عليها آمالها وأحلامها كانت تسهرُ على راحتها، تجلبُ لها العصائر، وتطهو لها كلَّ ما يساعدُ على تقوية ذاكرتها، في المقابل لا تريدُ من ابنتها شيئاً سوى حصولها على المركز الأوَّل، لكنَّ تقصير سلام في دراستها قد يجعلُها في المركز الأخير، وهذا ما كانت أمها تخشاه، وتدعو الله ليلَ نهار أن يساعد ابنتها على تخطّي هذه المرحلة الصَّعبة.

نامت من فرط تعبها، وهي تحتضنُ كتاب اللُّغة العربيَّة، وتهلوسُ بالفرزدق وبقصيدته الشَّهيرة:

وأطلـــــسَ عسَّـــــال ومـــــا كـــــان صـــــاحباً

دعوتُ بنار موهناً فأتاني

فلمَّـــــا دنـــــا قلـــــتُ: ادنُ دونَـــــكَ إنَّنـــــي

وإيّاكَ في زادي لمشتركانِ

لم تنم سوى ساعتين فقط، لترتشفَ فور استيقاظها فنجان قهوتها الذي أعدَّتهُ والدتُها لها وزيَّنتهُ بطوقٍ من الياسمين البلديّ، فسلام كانت تعشق شرب القهوة مع أريج الياسمين.

رمت كتاب اللُّغة العربيَّة وكأنَّها تنتقمُ منهُ لتتشاجرَ مع تالس وفيثاغورث، بينما لم يبرح كتابُ الرِّياضيَّات يدَها، وكأنَّهُ يعِدُها بنجاحٍ لم ترَ مثله. اتَّخذته

صديقَها في أيام المحن هذه، وصداقتها له صداقةٌ مؤقَّتةٌ، وبعدَها ستجعلُ من جسده أوراقاً تلفُّ بها السَّاندويتش، وتنظّف زجاج غرفتها بها.

امتلأت الدفاتر جميعها بالمعادلات الرياضية والنظريات الهندسية، ولم يتبق سوى حفظ بعض النظريات لتنتهي من هذه المادة الجاثمة على صدرها، فهي تكنُّ كرهاً شديداً لهذه المادة، ومهما حاولت لا تستطيع فهمها. هي تعشق المواد الأدبية، وتمنّي نفسها الولوج في القسم الأدبي، وكثيراً ما كانت تتشاجر مع والدتها حول هذا الموضوع، والدتها تحلم أن تكون ابنتها طبيبة تفخر بها، وهي ترغب بأيّ شيء يدخلها من بوّابة القسم الأدبي، لذلك تمقت الرياضيات، وتتمنى أن يصحبها سنة أخرى فقط، بعدها ستقنع والدتها أن تلج

القسم الأدبي مثلها مثل صديقاتها، وحينئذٍ ستنسى الرياضيات، ولن تتذكّر منه سوى أن: /١+١=٢/، ستلعن تالس على فيثاغورث ومعادلاتهما المعقّدة.

انتهت أيّام الضحك واللعب لتبدأ أيام الجدّ والنشاط، جاء الامتحان وفتح لسلام أبوابه لتكتب ما حفظه وفهمه عقلها.

ارتدت ثيابها التي ابتاعتها خصيصاً لهذه الأيام، بنطال جينز سماوي وقميص أبيض قصير ذو أكمام قصيرة، أسدلت شعرها الكستنائي الطويل على كتفيها، فانهمر كالشلال بالغاً أسفل خاصرتها، لكن ذلك لم يعجبها، فهو سيعيقها في أثناء الكتابة، ربطته بشريطة صفراء ورفعته عالياً، ثمّ ارتدت حذاءها الرياضي، وأخذت بطاقة امتحانها وقلمها من على الطاولة،

وأسرعت إلى والدتها تقبّل رأسها لتنهل من فمها وقلبها دعوات لا عدد لها. ربّما ينتهي الامتحان ولا تنتهي دعوات أمّها وأمنياتها، هل هناك قلبٌ يفوق قلب الأمّ في حنانها؟!

التقت بصديقاتها، فأشرعنَ يسألن بعضهن عمّا سيأتيهنّ في الامتحان، ووحدها كانت واثقة بنفسها، فلم تخشَ أيّ شيء.

ودّعت صديقاتها لتدخل قاعة غير قاعتهن، اختارت المقعد الثالث بجوار النافذة، وخلال دقائق معدودة كانت ورقتا الأسئلة والإجابة أمامها تدعوان سلام أن تباشر عملها. كتبت سلام ما فهمت وما حفظت، ولحسن حظّها كانت الأسئلة يسيرة عليها، ولم تجد فيها أيّ صعوبة.

سلّمت أوراقها لتعود إلى البيت دون أن تلتقي بصديقاتها خوفاً من أن يحبطنها، قبلت أمّها عند مدخل البيت، لتبدأ بإعطائها تقريراً مفصّلاً عن الأسئلة وعن إجاباتها كيف كانت.

توالت أيّام الامتحان وراء بعضها، وكانت سلام تخرج من الامتحان في كلِّ مرّة راضية عن إجاباتها، ثم جاء اليوم الأخير، وفيه كان الامتحان بمادّة اللغة العربية. استغرقت في القاعة ثلاث ساعات، لينتهي الوقت وتنتهي معه الامتحانات أخيراً.

استطاعت أن تطلب الإذن من والدتها لتخرج مع صديقاتها في نزهة قصيرة اعتبرنها هروباً من جحيم الدراسة.

* * *

بدأت العطلة الصيفية، وهجم الصيّف بحرّه مسرعاً، وكأنّه تنّينٌ ناريٌّ ينفث ناراً لا تنطفئ، يغلق فمه لدقائق ثم يعاود نفث نار أقوى لهباً.

لم تنسَ أن تقتني قرب أزهار حديقتها سلحفاة صغيرة جلبتها من بستان بعيد حين كانت في زيارة مع أختيها ووالدتها إلى بيت جدّها في الريف الغربي، هناك حيثُ الطبيعة تفتن كل إنسان.

اتخذتها صديقة لها تحدّثها بتفاصيل يومها الصغيرة، وحين كانت تهرب منها لتختبئ خلف شجرة الزيتون كانت سلام تبحث عنها نهارها بأكمله إلى أن تعثر عليها، فتبدأ معها بثرثرة طويلة الأمد. لقد عاودت

الهروب منها لتختبئ هذه المرّة خلف قن الدجاج، سارقة اللحم من القطط الصغيرة، لتأكل بشراهة ونهم وكأنّها جائعة منذ أعوام. تركتها سلام تتشاجر مع القطط على قطعة اللحم، وهي تنظر إليها بعيني الأم لطفلها.

هكذا أمضت سلام حياتها في الصيف، فضلاً عن وقوفها أمام المرآة دقائق عديدة، تتأمّل بشرتها السمراء الناعمة وعينيها البنيتين الصغيرتين، فتبدأ بتمشيط شعرها الطويل، ثم تمارس الرقص الشرقي كهواية من هواياتها حين تريد التنفيس عن غضبها وقلقها وحين تكاد تنفجر كبركان ثائر، ولأنها رشيقة كان جسدها يتمايل مع كل الإيقاعات كما تحب وترغب.

كانت مندفعة بحب الحياة، بالأمل، والمرح، ضحكاتها لا تنتهي، وسعادتها دائمة؛ لأنها لم تجرّب

الحبّ بعد، ولم تعرف ما هو، ولا يهمها أن تعرف، هذه الكلمة محظورة في هذا البيت الصغير، أمنيتها بسيطة، حياة خاصة تعيشها بمفردها مع سلحفاتها وحديقتها، حياة تتمناها وتسعى لبلوغها.

ابتسامتها جذّابة ناعمة لا مثيل لها في عالم النساء، وهذا ما جعلها محطّ أنظار الشبّان من أقارب وأصدقاء وجيران، لكنّها كانت مشبعة بالغرور، بحيث لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها بتاتاً، كانت تنظر إليهم نظرة استعلاء وتكبّر، فينسحب الواحد منهم تلو الآخر دون أن ينبس ببنت شفة.

لضحكتها رنين هادئ، لها تصغي الطيور، وتقفز العصافير طرباً وهي تحاول أن تقلّد تلك النغمة الخاصة، فتفشل، فكيف إذا سمعها شاب جاء من أعالي

الجبال ليرتوي من فيض ضحكتها، ليرحل غريباً كما جاءها عابر سبيل، يرحل دون أن يأخذ من ضحكتها زاداً يعينه على الطريق.

تعيش مع والديها وأختيها الاثنتين، تعيش معهن في دلالٍ كبير خصّهن والدهن فيه، ومع ذلك عاشت وحيدة في منزل يملؤه الحب والعطاء، لكنها تخلّت عن كل ذلك بغية الحصول على شيء لا تعرفه. لم تفهمها أختها الكبرى، وبدورها لم تفهم أختها الصغرى. عاشقة كانت دون عشيق، تهيم في هذه الأرض عشقاً. كيف لا، وهي عاشقة للأمل؟! هناك أمل سيأتيها، يعانقها ويرحّب بها، شيء جميل سيكون على موعدٍ معها، واثقة بعامٍ يأتيها ويهبها حياة تخصّها بمفردها.

لسلام طقوسها الخاصّة في فصل الصيف الحار، وبها تختلف عن أقرانها، حيثُ لم يتسنَّ لها إظهار مراهقتها ككل الفتيات، فالحب لم يكن يروقها، ربّما بسبب طبيعة والديها المتشدّدة والمحافظة، إذ كان خوفهما الدائم عليها من شاب يتلاعب بمشاعرها ثم يرميها يضيق عليها ويكاد يخنقها، فكانت تهرب من أفكارهما التقليدية إلى حديقتها الصغيرة التي زرعت فيها مختلف أنواع الزهور والنباتات من منتور أحمر وأصفر وياسمين وفل وزنبق وورد جوري، وبألوان شتّى. تجلس كلِّ صباح قبالتها، فتغنّي للمنتور (بعدك على بالي يا حبق ومنتور على سطح العالي)، وفنجان قهوتها بيدها يرجوها أن ترشف منه ولو قطرة، لكنها لم تكن تبالي به، فحين ترى حديقتها تنسى كلّ شيء.

توالت الأيام مسرعة إلى حتفها كما البرق، منها ما احتفظت به سلام في ذاكرتها الفولاذيّة، ومنها ما سقط سهواً وغاب في ركام الأيام.

* * * * *

بدأت تحضيراتها للمرحلة الثانويّة بعد أن حققت نجاحاً متوسّطاً، أما الأعوام القادمة فستشهد من سلام جدّاً وعملاً، حيث لا تهاون ولا تقاعس، وسيكون لأمّها ما أرادت، وستحقق نجاحاً كبيراً يؤهّلها دخول جميع الأقسام، وعلى أمّها أن تختار لها ما تريده وترغب به دون مراعاة ما تحب سلام وتعشق. إذاً لابدّ لها من الدراسة باجتهاد لتصعد سلّم النجاح، ويجب عليها البدء بالدراسة مع بداية العام الدراسي لتلحق بركب المتفوّقين.

جاءت هذه الأيّام لترتدي اللباس الزيتي المدرسي وتضفر شعرها بشريطة حمراء، ضفيرة واحدة تنساب إلى جيدها، وتضع قبعتها العسكرية على رأسها فيختلط سمارها بجمال زيّها العسكري، مما يجعلها تبدو أصغر من عمرها بسنوات، تضع لمساتها الأخيرة على هندامها، دون أن تنسى الحزام العسكري، وتخرج مع أختها بعد أن تلمّع حذاءها الأسود، تضع قبلة سريعة على جبين والدتها وتخرج منطلقة والأمل يشعّ منها.

ومع أنّ مدرستها بعيدة كل البعد عن بيتها إلا أنّها تعشق الطرق التي تؤدّي إليها. حقيبتها السوداء على كتفيها، بينما تضم كتاباً تمرّد عليها ورفض البقاء مع حزمة الكتب في الحقيبة الجلديّة.

تستمع صباحاً إلى زقزقة العصافير التي تصلها كموسيقى لموزارت، لا إلى ثرثرة أختها الصغرى سلوى التي تسير بجوارها وتحدّثها كلّ يومٍ دون كلل أو مللٍ عما تفعله في المدرسة مع أصدقائها، تصغي فقط إلى تلك العصافير الصغيرة الّتي تودّعها عند باب المدرسة لتستقبلها ظهراً في طريق عودتها.

تمرّ سلام بشوارع مدينتها النظيفة وبحواريها القديمة، حيث نساؤها الطيّبات اللواتي يقفن مشرعات أبوابهنّ وهن ينظّفن أمام بيوتهن، وكأنّهن ينتظرنها لتخرج إليهنّ، فيبدأ الهمس واللمز والغمز عن سمارها الجذّاب وقامتها الرشيقة وعن أخلاقها التي اكتسبتها من والديها. تلقي عليهنّ تحيّة الصباح، وتسير بجوارهنّ خجلة مطرقة رأسها نحو الأرض، وكأنّها تبحث عن

فانوس علاء الدين ليحجبها عنهنّ ريثما تبتعد عن عيونهن، تأكلها نظراتهن بإعجابٍ تارة وبحسد تارة أخرى، تهرب إلى شوارع المدينة الواسعة، وتحمد الله أنها هربت من عيونهنّ دون أن تقع أرضاً من كثرة نظراتهن المتفحّصة.

حين يبدأ الدرس تكون السبّاقة دوماً بالإجابة عن الأسئلة التي تدار في الصف، تتبارى مع صديقاتها بحلّ المسائل الجبرية الأكثر تعقيداً، حيث ستعلن الحرب على التاريخ والجغرافية وستتخذ فيثاغورث صديقاً لها.

تخرج برفقة صديقاتها كلّ يوم من المدرسة، يتحدّثن عن المعلّمات وعلاقتهن بالمدرسة، يتضاحكن ويمرحن مع بعضهن، ويخططن لدراسة تلقى بنجاحهن.

يودّعن بعضهن عند مفترق الطريق، ينعطفن يساراً، وحين تقطع سلام وسلوى الشارع العريض تنظر إلى السماء الواسعة وتبحث بعينيها عن العصافير الصغيرة التي تطير حولها وكأنّها ملائكة آتية من سماء بعيدة لتحميها من ذئاب بشرية تفترسها بعينيها دون أن تلقي سلام بالاً لها، يعرّونها بأعينهم الثاقبة، ويتحدثون إذا ما مرّت من أمامهم بألفاظ هي أقرب للسوقيّة منها للغزل، يمدحون سمارها ورشاقة جسدها، وكلّ واحد منهم يتمنّاها عشيقة له في السر وحبيبة له في العلن، لكنها تبخل عليهم بنظرة واحدة هي أقصى ما يتمنّونه منها، ولا يرحلون إلى أعمالهم إلّا بعد أن تغيب سلام في حارات المدينة وشوارعها.

كعادتها في كل يومٍ تدخل فيه منزلها تسارع إلى حديقتها تشكو لها متاعبها، تحتضن قطتها الحمراء الصغيرة، وتربت على سلحفاتها، تزرع وروداً جديدة في الحديقة، تسقيها كلّ يومٍ على أمل أن تكبر معها كي تحققا معاً وسام النجاح.

انتهت سنتها الدراسية، وعاد الصيف بملله، واشتدّ تضييق والديها عليها باعتبارها أصبحت أنثى ذات جمال يفتن الناظرين، لم يكن التضييق عليها فقط بل كان قد شمل أختيها، لكن سلام اعتبرته مهانة لها وأن عليها التخلّص من هذه القيود التي كبّلها بها المجتمع قبل والديها، ولكن باعتبارها الأنثى الوحيدة المتمرّدة في هذا المجتمع البائس صمتت كما صمت أقرانها من قبلها؛

لأنها تدرك أن لا فرار من تلك القيود سوى بقيود أثقل وأضخم.

لم تختلف إجازتها عن إجازاتها التي سبقتها، الحرّ سيد الموقف هنا، كانت تقضي الإجازة ما بين تأمّل حديقتها واللعب مع حيواناتها الصغيرة وما بين النوم هرباً من واقعها الممل.

حققت لأمها ما أرادت، دخلت القسم العلمي بجدارة وتفوّق منتزعة من الحياة وسام الأمل والنجاح.

ها هي الآن في الصف الثاني الثانوي، وعليها أن تدرس بجدٍ أكبر لتفوز بمرتبة أعلى. أحبّت تلك المواد رغماً عنها، فهامت في المعادلات بنفاق واضح، تقرأ الدروس الإنجليزية وكأنّها بريطانيّة المولد، تحسدها

صديقاتها على جرأتها تارة وعلى تفوّقها تارة أخرى، تجلس أمام طاولتها الخشبية قرب نافذتها في غرفتها الصغيرة، وأمامها تطل أشجار التين والمشمش والخوخ والعنب التي تحيط بغرفتها من كل جانب، تجلس وتقرأ بصوت عالٍ قصائد لمحمود درويش، وتحلل القصيدة إلى أجزاء وتشرحها كلّها في دقائق.

وكلما أغلقت سلام كتبها لترتاح قليلاً كانت تخطّ في دفاترها مشاريعها القادمة، كانت تكتب: "سيكون بداية اسمي الطبيبة، وسيفخر والداي بي، سأرتفع عالياً كما النجوم، ولن أسقط أبداً"، هكذا كانت تحدّث نفسها كل مساء حين تنتهي من أداء واجباتها، تعطي نفسها جرعة من القوّة والتحدّي والأمل، فقد قررت أن ستثبت

للجميع أنّ سلام لم تفشل من قبل ولن تفشل في المستقبل.

قبل أن تنام كل ليلة تحلم بعيادتها الصغيرة حيث ورود الصباح من فل وياسمين وجوري تزيّن ذلك المكتب الخشبي، سترتدي الثوب الأبيض، وستحمل حقيبة سوداء جلّدية فيها كل ما يلزمها كطبيبة مختصّة.

إذاً كان عليها أن تحارب النوم لتحقيق حلمها، فكانت فور عودتها من المدرسة كل يوم تسرع بتبديل ثيابها لتبدأ بالدراسة، فحلمها كان قاب قوسين أو أدنى، سنة واحدة إضافية فقط وبعدها تدخل سلام كليّة الطب البشري.

ركضت الأيام بسرعة عجيبة، واحتفظت سلام بالكثير منها، فيما سقط الباقي سهواً منها، وضاع على

أرصفة الأيام كأوراق أشجار خريفية يلعب بها الهواء كيفما يشاء.

نجحت إلى الثالث الثانوي ببراعة، لم يسبقها إليه أحد سوى فتاتين، حيثُ كانت هي الثالثة في مدرستها، والثانية في صفّها، اجتهدت أكثر فأكثر، وسُجنت في غرفتها، لا خروج منها سوى لأمر طارئ أو لقضاء حاجتها، حيثُ الطعام والعصير يصلانها إلى طاولتها، واحتياجاتها كذلك، ومع فشل أختها الكبرى سلمى في دخول كليّة الطب وبدخولها كليّة الحقوق أصبح الوالدان يعلّقان آمالهما على سلام ويدعوان خالقهما ليل نهار ألّا تسير على نهج شقيقتها؛ لأنها إن فشلت في تحقيق حلمهما سيتحوّل نظرهما إلى سلوى، وهذا ما كان

ليحصل؛ لأن سلوى –كما يصفانها دوماً– فاشلة؛ لكرهها مادّة الرياضيات وعشقها المواد الأدبية فقط، فكان التضييق على سلام أكثر من أختيها بكثير؛ لأنها مطيعة لوالديها ولن ترفض لهما طلباً.

تخطّت عتبة امتحانات الثالث الثانوي ببراعة وجهد، وكلّها ثقة بأنها ستصل إلى بداية القمّة، وستصعد وحدها دون مساعدة من أحد ودون أن تستند إلى كتف أحدٍ.

سارت تلك الأيام بطيئة، وكأنّها تساق إلى الموت، كسلحفاتها الصغيرة عندما تسير، حتى سلحفاتها كانت أسرع منها، فكانت هذه الأيام لدى سلام مشحونة بالتوتّر والقلق والخوف والترقّب، ليست هي فقط، بل

البيت بأكمله، يخشون أن تغوص أحلامهم إلى قاعٍ عميق.

باتت تفكّر كثيراً، وبدت وكأنها تجاوزت الخمسين، وهي ما زالت في الثامنة عشرة من عمرها، لا تبرح غرفتها إلّا للجلوس أمام حديقتها، وهكذا كانت تحاول أن تمضي يومها البائس.

كانت الساعة تقف عائقاً أمام أحلام سلام وأمانيها، يخيّل إليها أنها لا تدور، وكل دورة لها تعادل ليلاً بأكمله.

انقضت أخيراً أيام الخوف والترقّب والقلق لتحصل على ما تريد، ولتجتاز ذاك الحبل الرفيع، وتصل إلى

مبتغاها، لقد نالت درجة عالية أهّلتها دخول جميع الأقسام.

عانقتها والدتها ودموع الفرح تقطر منها، وعانقها والدها وقبّلها على جبينها مرّات عدّة، لتعانق هي بدورها أختيها اللتين تمنّتا لها نجاحاً كبيراً يضاف إلى قائمة نجاحاتها.

عمّت الأفراح البيت سبع ليال كاملة، فالحلم أصبح حقيقة والقمة لم تعد بعيدة، والنجاح ليس بمستحيل على من يطلبه بجدّ.

كبرت سلام، وأصبحت تذهب إلى العاصمة بمفردها، تأتي كلّ يوم لاهثة من حرّ الصيف، فتهرع إلى سريرها، تحتضن وسادتها وتنام.

انقضت أشهر الصيف وسلام طالبة في كليّة الطب، تجلس على مقعد في قاعة من قاعاتها الضخمة.

في كلّ صباح تذهب إليها، وهي تسدل شعرها الطويل على ظهرها، فينساب كشلال رقراق، لقد كبرت كثيراً فلم تعد تضفره، بل صارت تتركه مسدلاً تلعب به الريح كيفما تشاء.

وحيدة كانت في البداية، لا أصدقاء لها يشاطرونها أحلامها وأحاديثها الطفولية، حتى العصافير غيّرت طريقها، فلم تعد تسير مع سلام في الصباح، إذ كانت تنتظر الحافلة في الشارع المقابل لبيتها، الشارع الذي يوصلها إلى جامعتها، وطريق العودة هو نفسه.

كانت حياتها ما تزال بسيطة جدّاً قبل أن يفتح العشق في قلبها خنادق لا تستطيع ردمها، كانت حياتها

مدينة هادئة إلى أن ثارت الثورات فيها معلنة دخول كائن غريبٍ قلبها، ليجرحه بسكّينٍ ذات نصلٍ حاد قبل أن يغيب كلمح البصر عن الفؤاد. سارقٌ بارعٌ هو، استطاع سرقة قلبها في وضح النهار، ورحل حين حلّ الظلام واختفى، دون وداع رحل، دون اعتذار، ودون أن يُرجع القلبَ إلى مكانه الذي سرقه منه.

سنة تلتها سنة، أعقبتها سنتان، وسلام تنجح في موادها كلها، كيف لا، وقد اقتربت من حلمها، وأصبح بانتظارها خلف الباب، وعدت والدها بنجاحٍ باهر، فهي قادرة على صنع المستحيل من أجله، كلمة (الفشل) محذوفة من قاموسها، لم تعوّد ذاتها على الانسحاب في اللحظات الأخيرة، ولا حتّى قبل الأخيرة، ستحصل على ما تريده وترغب به إلا هو كان لها كالزئبق في يدها ما

إن حاولت الإمساك به حتى هرب من بين أناملها وغرّد خارج سرب حياتها.

تجمّع الأصدقاء حولها، أحبّوها لبراءتها وبساطتها في العيش والتأقلم، كانت ضحكاتهم معاً تعلو دوماً في بهو الجامعة، ولا مكان للألم في حياتهم. التفّ حولها الشبّان، كلّ واحد منهم تمنّاها قرينة له، لكنها كانت ترفضهم جميعاً وترفض الحب المقدّم لها على بساطٍ من ذهب، لن تعشق بتاتاً، ستتزوج كما تزوجت والدتها وجدّتها، فهي تخاف العشق وتخشاه كثيراً، وتدرك تماماً أنها ما إن تحب حتى يهرب الحبيب أو يتسرّب الخبر إلى والديها اللذين سيكبلانها بأصفاد من عادات بلدها وتقاليده، لذلك قررت أن تزيح هذا العبء الثقيل عن

كاهلها وتغلق باب الحب، فلا تفتحه سوى لمن يطرق بابها طالباً حبّها ويدها.

تشرب قهوتها كلّ يوم على الكرسي المقابل لحديقتها تحت أشجار العنب، وهي تبتسم للحياة متفائلة بكل ما ترسله لها من حكايا الأمل والحلم.

لم تكن الأيّام سهلة عليها، كانت كتبها غاية في الصعوبة، ولكن كل شيء يمرّ من بين أنامل سلام يمرّ ببساطة وبرتابة سهلة. أجمل يومٍ في حياتها اليوم الذي ارتدت فيه عباءة التخرّج السوداء، ووضعت القبّعة على رأسها، وابتسمت للجميع. لله درّ ابتسامتها ما أجملها، وما أكملها! الكلّ يتحدّث عن جمال تلك الابتسامة، وكأنّها عذراء تزفّ إلى عريسها في ليلة حمراء فيها الحب يسطّر أحرفها.

احتفل بها والداها على طريقتهما، وأقاما لها حفلة كبيرة دعا إليها الأقارب والأصدقاء والجيران، وقد كانت تدور حولهم كحوريّة البحر الصغيرة.

كبرت سلام وأضحت شابة تضج أنوثة وحياء، وبدأت العمل في المشفى الحكومي الذي يقع في وسط العاصمة، بدأت بالتدرب أوّلاً تحت إشراف الطبيب باسل الذي سارع إلى منحها الثقة بنفسها أوّلاً، كان قد ناهز الخمسين من العمر، فاختلط بياض شعره بسواده، ابتسامته على محياه دائماً، وقد سبق سلام في توزيع الابتسامات، فاقتربت منه كثيراً وجعلته والداً ثانياً لها، إذ كان يعاملها كابنته تماماً، كان دائم الخوف والقلق عليها، فأكثر أوقاتهما كانا يقضيانها معاً، إن لم تكن في

غرف المرضى تشهد غرفته لقاءهما، فيحدّثها عن خبراته ويفقهها في علوم الطب والحياة، وقد اكتسبت منه خبراتٍ واسعة اكتسبها من قسوة الحياة وجبروتها، فالحياة لا تعلّمنا شيئاً دون أن تأخذ منّا أشياء.

حدثها عن حياته كأنّه يحادث خياله، ولم يغفل صغيرة أو كبيرة مرّ بها يوماً، كانت تستمع إليه وتناقشه كأنّها كانت معه في تلك اللحظة الماضية، مما جعلها الابنة المدللة لديه والغالية على قلبه، فكان يمنعها عن كل ما يجرح قلبها، ولكن ذلك العشق اللعين التفَّ من خلفه وخطفها منه دون أن يراه كي يمنعه عنها، ولم يره إلا وقد تغلغل في صميم فؤادها ناخراً فيه كالسوسة، لم يترك منه أيّ أثر لعابر سبيل كي يلملم جراحاته النازفة.

وبعد سنتين من التدريب المتواصل تحت إشراف طبيبها ووالدها حصلت على لقب طبيبة أخيرة مختصّة في الأعصاب وجراحتها، وكان لنجاحها ذاك الأثر العظيم في فؤاد والديها.

وهكذا اطمأنّ عليها الطبيب باسل بالبقاء بجواره على الدوام، حيثُ اتخذت غرفته مكتباً لها بجوار طاولته، وهكذا يتسنى لها أن تتعلّم منه الكثير مما نسي أن يلقّنها إياه.

بدأت تذهب إلى المشفى في كل صباحٍ، فتشرب القهوة معه، ثم تقوم بجولة واسعة على مرضاها، تبتسم للكبير والصغير حتى أطلقوا عليها اسم ملاك الرحمة، فكانت تشبه الملائكة البيضاء في كل شيء.

وحين تنهي عملها تودّع الطبيب باسل، وتسارع في العودة إلى البيت، تلقي نفسها على السرير، وتنام فور إغماض عينيها مرتاحة البال من أيّ همٍّ أو غمّ.

ثلاث سنوات قضتها في مزاولة مهنة الطبّ لا يعكّر مزاجها شيء، سعيدة بعملها ومتفوّقة فيه، راضية غير غاضبة، وإلى الآن لم تجد نصفها الآخر، ولم يطرق باب قلبها أحد، فمشاغل الحياة الكثيرة أنستها قلبها، أنستها أنّ لها قلباً سيدقّ يوماً ما لمن يأتيها زائراً، وستفتحه له بمحض إرادتها متناسية نصيحة والدتها بألا تفتح قلبها لأيّ عابر سبيل يطرق بابه، فربّما كان مازال صبيّاً صغيراً يلهو ويهرب بعيداً، وربّما كان لصاً تعلّم طرق أبواب القلوب والتفنن في سرقتها.

ولكن متى سيدق قلبها للحبّ؟

متى سترحّب به وتدخله عالمها؟

* * * * *

(موعد مع الغرام)

أتراه وقع في غرامها فعلاً أم هو عشق التملّك؟

كانت كبذرة وسط صحراءٍ مقفرة مختبأة تحت الرمال، وكانت حينها تشعر بالأمان والهدوء؛ لأنها تدرك أنها طالما ظلت مختبأة في جوف الأرض ستبقى بعيدة عن العواصف والرياح، بعيدة عن الحيوانات المفترسة، ورغم أنها كانت تحيا دون أمل حيث أيّامها تشابه بعضها كانت راضية بحياتها، إذ ليس هناك ما يعكّر صفوها، وليس لديها شيء لتخسره أو تخشى عليه، مكتفية بوحدتها، متأقلمة مع وضعها، والأهم من ذلك سعيدة بحياتها البسيطة دون أحلام يقظة تراودها.

إلى أن أتاها كسحابة شتاء، وقف فوق رأسها ولم يكن لديها مظلة تحتمي بها من مطره الذي تساقط على

رأسها القطرة تلو الأخرى، حفر الرمال ووصل إليها، لكنها تجاهلت نداءاته ورفضت استقباله، خافت منه كثيراً، ظنتّه يداً آثمة تريد سحبها إلى المجهول، فانكمشت على ذاتها أكثر مما كانت عليه واحتمت خلف ذرات الرمال، لكن قطرات الماء بقيت تنزل بإصرار علّها تعيد حساباتها، فمن حقها أن تخرج من سجن وضعت نفسها في داخله، ومن حقها أن تعيد لحياتها أحلام اليقظة، فتحلم بأنها زهرة فواحة تمنح غيرها شذاها وأريجها.

وقبل أن تغادر السحابة بعيداً استطاعت التمسّك بالأمل، ولأول مرّة تبرعمت ورفعت رأسها فوق الرمال البيضاء، كان اعتقادها بأنه سيبقى العمر بأكمله يرويها، وسيبقى رفيقها في الصحراء الموحشة، سيبعد عنها

الحيوانات الزاحفة إليها، ويقطع الأيادي الممتدة إلى ساقها، كان السبب في خروجها من تحت الأرض لتزهر له وحده، وليتباهى بجمالها وشذاها.

لكنه لم يبقَ، بهدوءٍ انسحب ليبحث عن بذرة أخرى مختبأة في جوف الأرض، وهكذا تُعاد الحكايات التي تهمس بها الريح في كل خريف، خذلها وذهب ليمطر لغيرها، تركها في لهيب الشمس تواجه قدرها، ظلّت تنتظره لعلّه يعود فيمطرها بالحب الذي كان، لكنه ذهب بعيداً، ذهب دون أن يلتفت إلى وردته الجميلة التي أزهرت لأجله، وكل ظنها أنها ستظل معه إلى الأبد.

في كلّ يوم كان يمرّ عليها كانت تذبل أكثر، ولكن بقي لديها أملٌ بأنه سيعود إلى واحة رواها من قبل، وإلى وردة تبرعمت بين يديه، فمن المستحيل ألا

يعود، من المستحيل أن يدع غيمة أخرى ترويها، هل يتركها تموت من العطش؟ من رحل لن يعود، وإن عاد ستكون قد ذبلت.

انكمشت على ذاتها مجدداً، أوراقها في الصحراء ارتمت مطالبة بجرعة من حبّ واهتمام.

أكملت حياتها بقلبٍ مكسور جريح فاقد الثقة بغيوم أخرى، فكل السحب ستمطر يوماً ما على رأسها وترحل إلى البعيد.

ليته لم يأتِ إلى دياره، فهو لن يعيدها إلى ما كانت عليه قبل أن يأتي.

أصعب شيء في الحياة أن تعطي الأمل لمن يحتاجه، وتمنحه وعوداً كثيرة بأنك ستكون سنده وظلّه في الحياة، وإذا حدث أن عاهدت أحداً بمثل هذا لا

تهرب قبل انتهاء الحكاية حتى لا يلتفت ليتكأ عليك فيقع أرضاً، عندئذٍ سيبقى وحيداً عاجزاً عن منح الثقة لأيّ كان.

إن لم تكن قادراً على حفظ عهدك لا تقترب؛ لأن غدرك سيبقى سكيناً في قلبه حتى مماته، مانعاً إيّاه من إكمال حياته دونك، مانعاً إيّاه من العودة إلى ما قبل البدايات.

في بداية مايو حيث الجو ربيعي والنسمات باردة رقيقة تداعب وجنتي سلام وتتلاعب بشعرها الطويل ليتراقص على كتفيها، وحيث الشمس خجلة تظهر أحياناً لتختفي أحياناً أخرى كان الموعد مناسباً للحب، لحياة جديدة كانت غائبة عن أحلام سلام الواقعية.

الطريق إلى المشفى بعيدٌ بعض الشيء مما اضطرّها إلى الانتظار قليلاً في الموقف المخصص للحافلات، دقائق قليلة انقضت وجاءت بعدها الحافلة وهي تعجّ بالركّاب، لم يكن فيها سوى مقعدين، أحدهما بجوار النافذة حيثُ كان مقعد سلام المفضّل وهي ترى جمال مدينتها من نافذة الحافلة الصغيرة. لقد أخذها

الخيال بعيداً وهي تتأمّل الورود الصغيرة قد أزهرت وفاح عبيرها في الأرجاء، والأشجار أورقت وبات الربيع أجمل وأشهى، ما أجمله من فصلٍ تعشقه سلام! فيه يولد الحبّ من العدم، والأمل من رحم اليأس يولد، ها هي الحياة قد عادت لطبيعتها، خضراء مزدهرة، ذات لوحة بديعية وكأنّها رسمت بريشة فنان مبدع.

ضمّت كتاب الطبّ إلى صدرها والسعادة تغمرها، فهذه أوّل عملية لسلام في المشفى، وستنفّذها على أكمل وجه، إنها عملية سهلة وبسيطة (جراحة متلازمة النفق الرسغي)، ستحرر تلك القناة، وستشفي مريضتها من آلام يدها المبرحة، ستجري جراحة لكفّ يد المريضة وستقطع الرباط الرسغي العلوي، وبذلك تكون قد فكّت الضغط الواقع على العصب الأوسط المتواجد في الرسغ.

إنها متوتّرة قليلاً، ومعها كلّ الحقّ في ذلك، ما دفعها إلى حمل كتاب الطبّ لتراجع ما كتب بداخله من عمليّات مهمّة.

وصلت إلى المشفى، لبست ثوبها الأبيض القصير، ثم اتجهت مسرعة إلى غرفة العمليّات حيثُ كانت مريضتها نائمة تحت تأثير المخدّر. ابتسم لها الطبيب باسل، فهي اليوم ستقوم بإجراء العمليّة تحت إشرافه، ابتسامته منحتها جرعات كافية من القوّة والصلابة ووعدتها بالنجاح، فابتسمت له ودخلت غرفة العمليات.

نجحت في إتمامها وإنجاحها أيضاً، خرجت بعد ساعة تتصبب عرقاً، غسلت وجهها وشربت قهوتها مع الطبيب باسل في غرفته، حيثُ بدأ يثني عليها ويشيد

بإجرائها العملية بسرعة فائقة وبنجاح باهر. ودّعته بعد أن شربت القهوة على أملٍ أن تراه غداً.

لم تكد تقف هذه المرّة إلا وكانت الحافلة آتية من جهة الشمال، ركبت بجوار النافذة كعادتها، حلّقت بخيالها وسرحت بنظراتها إلى السماء البعيدة، كانت سعيدة لأنّها قامت بعملها على أكمل وجه، سعيدة لأنها اختصّت الآن في جراحة الأعصاب، سعيدة بقدوم الربيع، سعيدة قبل أن يطرق الحبّ بابها، فما الذي دفعها للوقوع في شباك الحبّ بعد أن كانت هي والسعادة عاشقين متيمين؟! ما الذي دفعها لتنسى طريق السعادة وتغرق في دوّامة الحبّ والحبيب؟!

توقفت الحافلة عند الإشارة الضوئية ليصعد شاب ويجلس بجوارها، وسيماً ومفتول العضلات كان، ذا بشرة

بيضاء وشعر أشقر، شبّهته سلام بالممثل الأمريكي توبي ماغوير بطل فيلم (Spider Man).

لم تنتبه سلام بادئ الأمر له، ولم تنظر إلى من احتلّ المقعد بجوارها، فعيناها كانتا محدقتين فقط فيما وراء النافذة، وكأنّها تريد الاحتفاظ بجمال الربيع في ذهنها ليطرحه لها عند قدوم الشتاء، وبعد مرور وقتٍ قصير اقتحم عزلتها ليسألها عن عملها.

استدارت إليه باستغراب شديد، تفحّصته بنظراتها وكأنّه لص آت ليسرق منها آمالها، أخبرته بلهجة الواثقة من نفسها أنّها طبيبة أعصاب.

عرف ذلك من كتاب الطبّ الذي كانت تحتضنه بين ذراعيها، ومع ذلك أحب أن يبدأ حديثه بأيّ سؤال ساذج يخطر في باله.

بدأ حديثاً لم ينتهِ إلا بعد أن نزل من الحافلة، سألها أسئلة كثيرة لتجيب هي عنها بإجابات مختصرة.

أخبرها عن أخيه وآلام رأسه الشديدة، كان مصاباً بمتلازمة الصداع النصفي، فحددت له موعداً معها في المشفى كي تصف له العلاج المناسب بعد أن تقوم بمعالجته وتتأكّد من الداء الذي ألمّ به.

في تلك اللحظات بالذات لم تستطع سلام أن تخبّئ فرحها، كفراشة هي بين الحقول في فصل الربيع تطير، لماذا كسر جناحيها طالما ليس بمقدوره الإمساك بها جيّداً؟!

ثقته بنفسه طغت على ثقتها بنفسها، كان يتحدّث معها بهدوء يشبه الهمس، مما اضطرّها أن تجمع

حواسها كلها كي تسمع ما يتفوّه به، حضوره أسر كيانها من لقائهما الأوّل، فكيف لو تعددت اللقاءات؟!

توقّفت الحافلة عند موقف سلام، استأذنته ونزلت من الحافلة، فما كان منه إلّا أن تبعها وناداها بصوته الرخيم، استدارات إليه برشاقة لتعرف ما يريده منها، طلب منها رقم هاتفها ليتّصل بها حين يصل بأخيه إلى المشفى كي يهرب من إجراءات المشفى الروتينية، فتساعده هي بذلك.

أعطته بطاقتها، وعليها دونّت جميع أرقامها، ثم مشت كالملكة الواثقة بنفسها تاركة إياه في الدرب وحيداً يتأملّ أرقاماً في بطاقة سوداء اللون.

مشت دون قلبها حيثُ نسيته عنده تتذكّر ما قاله ع نفسه، مهندس حواسيب يكبرها بثلاثة أعوام، صفاته

التي لمحتها سلام هي نفسها صفات فارس أحلامها، ها قد جاءها، ولكن دون حصانه الأبيض، جاءها بقلب أبيض يدعوها إليه لتدخله ملكة وليصبح ملكاً لها.

لقد وقعت منذ ذلك اليوم الربيعي ضحية حبّ عاصف قاسٍ، ولم تنتبه إلى أنها من ضحايا الحبّ أضحت.

غادرته وفي ذهنها عشرات الأسئلة عنه، وفي خيالها تبعثرت صور له، من يكون؟ من أين خرج؟ كيف وافته الجرأة ليقتحم حياتها؟ لكأنّه يعرفها دهراً!

كانت تعيش حينها ببساطة وعفويّة، كلّ شيء في الحياة يسير كما تحبّ وترغب، حتّى حياتها العاطفية كانت مستقرّة، ففي خيالها عاشق رسمته كما أرادت، وشاءت الصدفة أن يأيتها فارسها كما رسمت وحلمت،

كان يختلف عما تخيلته بنقطة واحدة ما جعل سلام تقلع عن التفكير به، حيثُ كان حبيبها الافتراضي أسمر البشرة، فالرجولة بالنسبة إليها تتلخّص في شاب ذي بشرة سمراء مثلها تماماً.

عاد إلى ذهنها مجدّداً، حيثُ وجوده كان آسراً وحضوره طاغياً، ومع أنّهما لم يتطرّقا لأحاديثَ خاصة ورغم أن أحاديثهما كانت عامّة إلّا أنّها شعرت به يستولي على الحديث برمّته، لم يترك لها سوى فتات من الإجابات تقدمها إليه، أحسّت وكأنّها تعرفه منذ زمن بعيد، ولكن لم تعرف أين ومتى، حاولت أن تتذكّر أين رأته، لكنّه في لحظة واحدة سيطر على ذهنها ومنعها من التفكير إلّا به.

وصلت البيت أخيراً، فارتشفت كوباً من الماء، ثم خلعت ملابسها ورمتها على السرير لتنام قبل أن تدعوها والدتها لتناول طعام الغداء مع الأسرة.

ثلاثة أيّام كانت كفيلة لتنساه وتعيش حياتها بالنشاط ذاته الذي اعتادته، نجحت في إبعاده عن ساحة تفكيرها مقنعةً ذاتها أنه مجرّد صدفة رماها القدر في دربها، والصدف الجميلة هيهات أن تتكرر.

توقّعت ألا يتصل بها، ربّما رمى بطاقتها أرضاً أو مزّقها ودهسها بقدمه ناسياً أنه قد قابلها أساساً، وربّما سيتّصل بها فقط لتعطيه موعداً لأخيه في المشفى.

لكنّه فنّد توقّعاتها، اتصل بها قرابة الخامسة مساءً، كانت تجلس تحت شجرة التين قرب حديقتها تلاعب قطتها السوداء الجديدة، وإذ برقم غير معروف

يظهر على شاشة هاتفها، ردّت بثقتها العالية، فسمعت صوته من خلال هاتفها الصغير وكأنّه قادم من أعماق البحار، عرّفها بنفسه حيث ثقته تعدّت كل الحدود، وسلام لم تعرف من أين ورث هذه الثقة بالنفس ليفاجئها بها كلّ حين.

- أريد رؤيتك مجددّاً.

صمتت قليلاً، غاب الكلام عن ساحتها، ملأت رئتيها بالهواء المنعش واسترجعت أنفاسها، ثم قالت:

- لا أستطيع، فأنا لا أملك الوقت، هو من يملكني، أغلب وقتي في المشفى، ومواعيدي ممتلئة بعض الشيء. اعذرني، فلا أملك ساعة واحدة أقضيها معك، ولكن إذا رغبت بالتحدّث

إليَّ فمكتبي في المشفى مفتوح لأيّ طارق يطرقه.

– إذاً سيكون لنا موعد في المساء.. أستودعك الله.

كيف عرف أنها ستكون في المشفى في تلك الليلة؟ هل اتصل بالمشفى، وجلب قائمة مواعيدها؟

تركها في ذهول لفترة وجيزة، وبعدها حامت في ذهنها أسئلة عديدة، لماذا هي بالذات؟ ما حكايته؟ هل يريد التسلية؟ قلبها ليس للتسلية بتاتاً، أضاعت نصف عمرها حتى لا يأتيها شخص لا تعرفه ليلهو بمشاعرها ثم يرميها وراء ظهره تتسوّل منه نظرة حب.

هي ذات قلبٍ رقيق تخشى التعلّق بأحد لا يفكّر بالاقتران الجاد، لتنتهي حكايتهما فيما تبقى في صدمة عاطفية قد لا تصحو منها.

ولكن أمير لم يكن كباقي الشباب، ترك في ذهنها إشارات استفهام عدّة وإشارات تعجّب، في ثانية واحدة توّج نفسه أميراً على عرش قلبها، بقناعتها التامّة، رافضة إعلان الثورات عليه.

قررت كسر الحاجز الجليدي بينهما ورؤيته، قررت استجماع شجاعتها والتحدّث إليه حتى يتسنى لها وضع النقاط على الحروف حين تعرف ما يريده منها.

جهّزت نفسها للقاءٍ ثانٍ يجمع عقليهما مع إبعاد قلبيهما عن طاولة النقاش، وحينما جاءها قبل موعده لم تدخله سلام غرفتها، فضّلت السير معه في شوارع

المدينة الكبيرة كي تسطّر ذكرياتها الأولى فيها. هذه المرّة تطرّقا للخصوصيّة كثيراً، أعطته معلوماتٍ كاملة عنها، لم تبخل عليه بمعلومة واحدة، أخذها الحديث فنسيت أنّه مازال في قائمة الغرباء ولم يصل إلى مرتبة الحبيب بعد، أخبرته بما في قلبها من أشياء صرّحت بها ككرهها للكذب والخيانة، كان قريباً منها لدرجة خيّل إليها فيها أنّها تحادث ذاتها، فبدا وكأنّها تعرفه منذ نعومة أظافرها أو أنهما تربيا وترعرعا معاً.

انتهى اللقاء الأوّل بينهما، ودعها بابتسامة وغادر على عجل دون أن يلمح قلبها وهو يجري وراءه، لم تكن لتدرك بعد أنّ القلب بات عاشقاً شغوفاً.

عادت إلى البيت منهكة خائرة القوى، خلعت ملابسها وارتدت منامتها، رمت بجسدها على السرير

واستلقت على ظهرها، سرحت بخيالها وحلّق الخيال في محيطه، بدأت تقارن بينه وبين حبيبها الافتراضي مجهول الاسم، أحسّت بخيانتها له وأنّها كانت مكتفية به عن سائر الرجال، مكتفية بحبّه عن الحبّ الحقيقي، رسمته كما تريد، وكتبته كما تحب، وحده الحبيب الافتراضي لا يتمرّد ولا يثور، لا يخون ولا يظلم، وإن حاول التمرّد عليها تمزّق الورقة وتجلس تستمتع بصراخه من خلف أسطر الكلمات، وبعدها تستدعي آخر لا يخون، كانت عاشقة لحبيب لا وجود له، إذ كانت تمنع نفسها عن التفكير بجميع الشبان عداه، لكن أميراً جاء ليخبرها أنّه حبيبها الافتراضي، خرج من الورقة ليمسك بكلتا يديها، كي لا تتوه في زحمة الأوهام وحكايا الغرام. لقد قلب معادلة الحياة وجاءها واقعاً ليخبرها أن لا حبيب بعدي ولا عاشق قبلي، ففيه وضعت صفات تعشقها

جميع النساء كي يكون لها حبيباً افتراضياً في واقع لا افتراضي.

لم يكن لقاؤه صدفة بل كان القلب في انتظاره، لذلك كانت اللقاءات تسير بينهما بسرعة البرق، إلى أن اتَّحد القلبان في جسدٍ واحد رافضين من أحد التفريق بينهما.

نامت وهي تحلم بالحب الذي كان وبالحب الذي جاء، واستيقظت على زقزقة العصافير الصغيرة وهي تمرح على حافة نافذتها، ارتدت ثيابها على عجل وتناولت فطورها على عجلٍ أيضاً، كان بانتظارها مريضان بحاجة إلى عمليتين جراحيتين.

كان عملها متعباً في ذلك اليوم، لذلك لم تستدعيه بخيالها في حين تذكّرها هو، ولم ينس أن يدبّر موعداً

آخر يكون فيه للحبّ مكان. اعتذرت منه ولم توافق إلّا بعد إلحاحه المستمرّ، لم تستطع إخفاء السعادة التي أطلّت من عينيها، لكن دقّات قلبها الخائف كانت لها بالمرصاد، كما كان القلق طاغياً على ملامحها البريئة.

من أيّ أنواع الطيور هو؟ أيعقل أن يكون سنونو جاء ليحوم حولها ويغرّد بجانبها لشهور عديدة ثم يرحل لأخرى يبني عشّه في حضنها؟ هذا ما تخشاه سلام، الحب، فالتعلّق، ثم الوهم، وفي النهاية الانسحاب المفاجئ. كان فيه من الصفات ما جعلها تستجمع شجاعتها لتخوض معركة للظفر به على أمل الفوز بتجربة جديدة وبحبّ جديد.

كانت الساعة بالنسبة لها تمرّ ببطء كعجوز هرمة تُساق إلى حتفها، ومع أنّها كانت منشغلة طوال الوقت

إلّا أنّ الخوف كان هاجسها الوحيد، وفي غمرة هذيانها دقّت الساعة الجدارية معلنة الرابعة عصراً، رتبت أغراضها وخرجت للقائه.

سارت وحيدة في الدروب المتعرّجة تخطو خطوة إلى الأمام وعشرات الخطوات إلى الخلف، قلبها يتمنى لقاءه وعقلها يتمنّى غيابه، يتمنى إنهاء حكاية لم تبدأ بعد وإغلاق كتاب قبل كتابة سطرٍ واحد فيه.

وصلت في الوقت المحدد كعادتها في التزام المواعيد، إن كانت مواعيد للغرام أم العمل. توقّعت أن تصل قبله، لكنها صدمت حين رأته في انتظارها وكأنّ الشوق من قاده إلى موعده. التقت العيون وابتسمت الشفاه، أخفضت بصرها كي تحجب عينيه عن عينيها؛

لأنها كانت تدرك أنه متى التقت العيون تشابكت القلوب، وهذا ما كانت تخشاه.

تمشّيا قليلاً تحت شمس مايو الدافئة، كان الربيع قد نسج حولهما أزهاراً ووروداً زاهية الجمال، كانت شخصيّته قد أضفت على الربيع سحراً آخر، كان بارعاً في اختلاق أحاديث في كل المجالات مما جعل سلام جاهلة أمامه، بدت وكأنّها لا تعرف عن الحياة شيئاً. لقّبته بجوجل؛ لأنّها وجدته موسوعة تمشي في الأرض. حديثه كان ممتعاً وأسلوبه شيّقاً كرواية هو ما إن تبدأ قراءتها حتى تكملها كلها دون التوقّف عند سطرٍ واحد.

حين جاءت لحظة الوداع تشابكت العيون جزءاً من الثانية، فارتعشت سلام كمن أصابته رعشة من كهرباء، وكأنهما مغناطيسان جذبا بعضهما، رجف قلبها

وتسارعت دقّاته، وارتعش جسدها كلّه. في هذه اللحظة بالذات أحسّت أنّها التقت بنصفها الثاني الذي سيحذف حبيبها الافتراضي من حياتها، أخفضت بصرها لتتجنب نظراته ولتخبره:

– ربّما ستضحك عليّ إن أخبرتك أنّي أشعر وكأنني أعرفك منذ زمن.

نظرت إليه لثانية، ثم أخفضت ناظريها لتكمل:

– كأني رأيتك في مكان ما! لعلّه جمعني بك حديث قصير في زمان ولّى! كأنّك كنت شخصاً قريباً، ولم تكن غريباً!

ابتسم لها، فضاع قلبها منها، ثم قال لها بصوت يشعّ حناناً:

– "الأرواح جنودٌ مجنّدة، ما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف".

ثم قال:

– لقد تملّكني أنا أيضاً الشعور ذاته، وكأنني كنت أبحث عنك دهراً.

في هذه اللحظة أضحى قلبها له، تملّكه بعقد من حبٍ وولهٍ أمضت هي عليه بشغف عاشقة، عقد بداخله عهود بحب خالد لا يفنى ولا يزول.

جعلها أميرته، وأسكنها فوق السحاب، اخترع لها الهواء حين رآها تشعر بالاختناق، ذرف لها دموعه كي ترتوي منها فلا تظمأ أبداً، اقتطع لها من جسده الغض كي لا تجوع، وحين غرقت في محيط الأحزان وحده من مدّ إليها طوق النجاة، فسحبها إلى جزيرته الوادعة، وبنى

لها فيها جسوراً ضخمة من الأمان كي تعبرها دون أن تخشى شيئاً. وحده من قدّم لها دعوة اللجوء إلى قلبه، وهي تلقّت الدعوة بقلب ينبض باسمه، وحين دخلت ذاك القلب أغلق عليها، ضمّها ليشعرها أنها غدت ملكاً من أملاكه، ولا يقبل التنازل عنها بتاتاً.

رسما سويّة أروع الأحلام وأجملها، اختارا صالة الحفل وترتيباته وأثاث الشقّة وموضعها، أسماء الأطفال ومدارسهم. كل شيء بدأ من حلمٍ صغير، وبدأ الحلم يكبر رويداً رويداً فيما الواقع لم يتغيّر قيد أنملة.

عند تعثّرها في وسط الدرب كان أوّل من تراه يقف بجوارها ويساعدها على الوقوف بابتسامته الصادقة التي تذيب الهم والألم، ساعدها على الفرح في أوقات حزنها وعلى الأمل في لحظات يأسها.

لم تعتقد أن اليوم الذي تصبح فيه من ضحايا الحبّ سيأتي، وأنها ستغنّي من أجله وتناضل ليستمر وتخوض الثورات والحروب كي تبقيه أبد الدهر لها، لم تعتقد أن اليوم الذي سيتغلغل فيه الحب في عروقها ويسري مسرى الدم في جسدها سيأتي، كقطرة مطر تائهة في عرض البحر كانت، ثم أصبحت محيطاً بفضل الحب.

لم تكن تعرف الحب من قبل، لكن ذاك الشعور الذي طغى عليها دون سابق إنذار أخبرها أنه عشق أبدي سيبقى قابعاً في الفؤاد.

كلماته فقط من تأخذها إلى عالمٍ آخر تطير في سماء حروفه، وتغمض عينيها كي تبقى هائمة في أعالي الأحلام، وحده من يتحكّم بها، يرفعها متى يشاء

ويسقطها متى يشاء، ألهذه الدرجة يفعل الحبّ بنا؟! ألهذا الحد يتحكّم بأبسط مشاعرنا؟!

نعم.. كان كذلك بالفعل، فعند نهاية كلّ لقاء بينهما تجلس في الحافلة بجوار النافذة، وتغمض عينيها لتستحضره في ذهنها بكلماته وحركاته، همساته وإيماءاته، نظرات عينيه الثاقبتين، وحده فقط من كان يشغل عقل الصغيرة سلام وقلبها.

آهٍ منك يا أمير، آه منك على ما فعلت بقلب طفلة كنت أوّل من يقتحم عالمها ويحتلّ فؤادها. كنت أستاذها الأول، وكانت طالبتك المجتهدة، منك تعلّمت أحرف الحبّ الأولى.

لم يستأذنها حين دخل قلبها، وحتى لو طلب الإذن منها وقال لها بلهجته الشاميّة (اسمحي لي فوت

قلبك وابقى فيه للنهاية)؛ كانت ستضحك من سذاجته وبراءته، وستكتفي بالصمت.

ضمّ قلبها الصغير إلى قلبه الكبير، إذ إنّه الوحيد القادر على فهم صمتها وحاجتها إلى حنانه ورعايته.

كانت تطير في سماء حروفه في كلّ مرّة تستمع فيها إلى كلماته، وفي كلّ مرة تلمح وجهه الباسم تغمض عينيها ليبقى وحده من يسكنها، تشتاقه، تعاود فتح عينيها الصغيرتين فتراه مازال يحدّق إليها ومنه تشع ابتسامة عذبة خصصها لها.

كانت المرّة الأولى التي شعرت بها سلام بالحبّ، تدخل في متاهاته دون البحث عن خيط النهاية، تركب أمواجه وتضحك بملء فيها دون أن يطالها من غدر الحب شيء.

أحبّته.. نعم، لم تنكر ذلك، ولم ينكر هو ذلك، فهو من سافر بها إلى بلادٍ لم تطأها قدماها من قبل، أسكنها في قصور من خيال، زرع في دروبها أزهاراً من نبض حبّه وحنانه، حقق لها الآمال والأحلام، علّمها كيف تعشق وتصل إلى سماء الهيام، كيف تصل إلى اللاوصول.

وحده من انتشلها من ضياعها وأتى بها إلى الحياة، فمنحها شهادة ميلاد جديدة موقّعة باسمه وقلباً جديداً ينبض باسمه ودماً جديداً ينزف لأجله، كانت وكأنّها ولدت مرّة أخرى لتتوّج أميرة، فكان ذكر اسمه فقط ما يشعرها بالأمان، وخاصة بعد أن مدّ لها ذراعيه وفتح

لها قلبه لتسكنه، رمَّم انكساراتها الحزينة واشترى لها لحظات الفرح، سعى جاهداً لاختراع السعادة من أجلها.

* * * * *

(وللخيبات موعد لن تخلفه)

أخاف من وداع لا أمل في لقاء بعده

أخاف من فراق تنسى تفاصيله وتمحوها الأيّام

أخاف من صدفة تجمعنا وبحضنك طفلة تلاعبها

تناديها باسمي الذي صار لها

وعيناك تلتهم جسدي

(أحبّك جدّاً وجدّاً)

أخاف من اتصالك المفاجئ في جنح الليل لتبثّني

أشواقك وتشكو حنينك

فأنظر إلى زوجي وهو يطالعني بنظراته لأخبرك

أنّ الرقم خاطئ..

أغلق الهاتف وصدى أنفاسك مازال يتردد في

ذهني

كشجرة متآكلة من جوفها

تُبان للناظر واقفة شامخة

لكن.. قد تسقطها نسمة عابرة في أيّ لحظة

فلا يغرنّك جلدي وصلابتي..

لم تكن تظنَّ أنّ

العامين اللذين نهلا منهما حباً يمكن أن ينضبا، بل كانا لها بمثابة يومين فقط، وحدها ساعات الحبّ تهرول بسرعة عجيبة باتجاه منحدر زلق، وحدها ساعات الحنين من تطيل المكوث قربنا وتنهشنا بمخالبها. تلك الساعات الأولى تركض إلى ما لا نهاية، لتتبعها ساعات الفراق كمخالب تنهش قلوبنا دون هوادة، دون رأفة، ودون رحمة. ما الذي حدث لتنتهي حكاية عمرها عقب عامين فقط؟ مازالت صغيرة لقتلها بدل رعايتها والاهتمام بها.

نظرة خاطفة منه إليها، ثم أزاح عينيه عنها كي لا تقتله نظراتها البريئة والمتوهّجة بنار الحب، ليخبرها

بفراق طويل الأمد لا لقاء بعده، فلا يبقي لها سوى حنين الليل في الشتاء ووسادة مبللة بعبرات أثقلها الشوق ذرفت دون مراعاة بصاحبتها.

نظرت إلى عينيه الدامعتين والشوق يمزّق فؤادها، ودّت أن ترتمي في أحضانه الدافئة، هذا الحضن مباح لها اليوم فقط، وبعده محرّم عليها الاقتراب منه. أرادت أن ترمي نفسها في جمرة قلبه المتّقدة، لكنّها خشيت على ذاتها من بركان سينفجر في وجهها إن عاتبته لرحيله.

تركها في صدمة لن تغفرها له سنين عمرها التي ما إن أحياها حتّى قتلها، تركها بعد أن أخبرها أن القبيلة قد حالت بينهما، بنت جدار الفصل العنصري، بنت حواجز إسمنتية، حدوداً ليس عبورها بالأمر اليسير.

بحث في قاموس اللغة عن كلمة اعتذار يطلقها كسهم خارق يخترق فؤادها، علّها تعي أنّ ما تفوّه به من حماقات هي الحقيقة بعينها، لكن اللغة كانت قد غدرته، فلم ينل مراده من كلمات أرادها للاعتذار. لم يضيّع وقته بالبحث في أحشاء اللغة لانتقاء ما يبرر به هروبه، إذ إنّ الكلمات التي تولد في لحظة الفراق إنّما هي محاولات فاشلة لتبرير الرحيل وتفسيره.

غادر من فوره دون مراعاة لشعورها، لم يلمس يدها حتّى، لم يشدّ عليها ليخبرها كما في كلّ فراق أنّها تستحقّ الأفضل، وإن كان الأفضل لا يعنيها، وإن كانت تراه الأفضل والأكمل بين الرجال كافّة، بخل عليها بنظرة وداع أو كلمة أو لمسة، ربّما حينها كانت ستغفر له خطأه الذي لا يغتفر.

في قلبها العشرات بل مئات الكلمات مما تودّ البوح بها، كلمات عتاب وأحاسيس مرهفة مكنونة في صدرها، تحتاج قلبه كي يتبنّاها، لكنها التزمت الصمت؛ لأنّ قلبه ما عاد لها.

رحل وخلّفها وراءه تتخبّط في دوّامة من الانهيارات المحدثة في جوفها، وجدت مقعداً تحت ظلِّ شجرة الكينا الضخمة، رمت بجسدها عليه، وفجأة ضاقت بها الدنيا بما رحبت، ونزف جرحها الدامي فأيقظ عبراتها لتنسكب وتغسل جروح قلبها، لم تكن تشكو ألماً جسدياً بل كان هو جلّ آلامها كما كان من قبل جلّ أحلامها، لحظة تلو لحظة ترقّبت عودته ليخبرها أنّه يمازحها، يكذب عليها، لن تغضب منه إن كذب هذه المرّة، ستسامحه، ستقبل منه أيّ شيء برحابة صدر إلّا الفراق. مرّت ثوانٍ لتتبعها

دقائق، وكانت الساعات كفيلة لتخبرها باستحالة عودته، غادر شواطئ قلبها وأحرق سفنها، تركها وسط الأحزان لتغرق وتغرق حدّ الثمالة دون أن ترى هذه المرّة يده تمتدّ لتنتشلها. تمنّت البكاء على صدره هذه المرّة فقط، لكنّه لملم مشاعره في حقيبة ورحل إلى البعيد.

قبل يومٍ كان لها حبيباً، والآن أصبح غريباً بسبب آراء القبيلة وعاداتها، فابنة عمّه أولى به من الغريبة. كانت هي الحبيبة، والآن هناك من أخذت مكانها لتبقى غريبة وتغدو تلك الغريبة حبيبة.

لم تتذكّر كم من الساعات قضتها تحت ذاك الظل يحميها من وهج الشمس الذي عجز هو عن حمايتها منه، ويعاد مشهد الوداع في ذهنها آلاف المرّات، وفي كلّ مرّة تبحث عن ثغرة تلتقيه بها لكن عبثاً تحاول

فتفشل، لم يكن مشهد وداعها بقدر ما كان مشهد ذبحها وسلخها وتركها أشلاء مبعثرة دون أن يحاول جمعها ولملمة شتاتها.

ذاك المنزل الذي بنياه سويّة في خيالهما، أيعقل أن تأتي أخرى لتسكنه، فيطلق عليها لقب زوجته فيما ممنوع على سلام الاقتراب؟!

وقفت لتعود أدراجها إلى منزلها، حملتها قدماها وهي تتذمّر من ثقل جسدها الذي كان قبل ساعات ريشة في مهبّ الريح، كرجلٍ آليٍّ سارت ببطء شديد، على حافة ذاك الرصيف كانت تمشي، وهي لا تعلم وجهتها، مشت دون مشاعر وأحاسيس، بكت دون أن تتجمّع الدموع في مقلتيها، تألّمت دون أن يبادر لضمّها أحد، يئست دون أن تلمح بقعة أمل تنير دربها، ظل قلبها

ينزف وهي تحاول لملمة شتاتها المنثور، وحين عجزت عن جمعه تركته بقايا جروح وشتات متناثر بعثرتها الرياح ومزّقها البرد، ولكن لم تبالِ بذلك كله، فقد كان ألمها أكبر وجرحها أعمق.

دخلت غرفتها وأغلقت الباب خلفها، وحينها سمحت لشلال دموعها بالانسكاب وهي متقوقعة على ذاتها في سريرها القابع وسط غرفتها والرياح المتسللة من الخارج تلهو بشعرها وكأنّها ترفّه عنها وتواسيها.

لم تذق طعم النوم في تلك الليلة المتشحة بالظلام، ولكن هل كان أمير في ذلك الوقت يبكيها أيضاً كما كانت تبكيه؟

في ذاك الوقت كان يحضّر لحفل زفافه المرتقب على من اختارتها له القبيلة والعائلة، على امرأة لم يعرفها

من قبل، كانت غريبة عنه، وبأمر القبيلة أضحت كلّ حياته، سنداً له وأماً لأطفاله ستكون، بجرّة قلم يلغي واحدة ويرحّب بأخرى، وسلام التي صنع أحلامه معها طردها من قصره في ليلة باردة قاسية كقلبه الجليدي، لم يرأف بها ولا بضعفها، ولم يسأل كيف قضت حياتها دونه.

كيف عاشت سلام حياتها دون أمير؟

عاشتها دون قلب، قلبها في وادٍ وجسدها في وادٍ آخر. عاشتها بجسدها فقط تأكل وتشرب وتنام وتعمل، تسأل نفسها في كلّ يوم عن سبب قيامها بهذه الأعمال الغبيّة، وعن الفائدة من استمرارها في حياة بخلت عليها بالحبّ!

في أوّل ليالي الفراق بدأت تشتاق لإطلالة وجهه، لسحر عينيه، لقراءة سطور قلبه، اشتاقت السير في درب روحه، لهمس اسمها بين شفتيه.

كانت تستيقظ من نومها وتفتح عينيها الصغيرتين فلا ترى فوق الأرض سواه، وكأنّه حذف العالم بأكمله ليبقى طيفه حارساً لها في وحدتها، وفي الليل حين تغمض عينيها لا ترى في ظلمة عينيها سواه، تعود إلى نفسها في منتصف الليل فتقتطع تذكرة الخيال لتسافر بها إلى مدن الأمس، تتجوّل في طرقاتها باحثةً عن رائحته على جدران ماضيها، إذ كان هو الجوهرة التي تضيء حياتها، ثم غاب كالشمس ولم يشرق مرّة أخرى. كان يخيّل إليها قبل الوقوع في غرامه أن الوجود أوسع من كلّ شيء، لكنّها اكتشفت أنّه أضيق من خرم إبرة، فهو

لم يتّسع لفرحتها حين كانت معه، ولم يتّسع لحزنها حين رحل عنها. خلّفها وراءه فتاة مفجوعة، تنتحب عند الحنين كجدران القصور المهجورة، ونسي حين غادرها أن قلبها سفينة لا تبحر إلّا إلى جزره ولا تحطّ إلّا في مينائه، أما الآن فبحور الحبّ والأشواق قد جفّت بينهما منذ أن أعلن الفراق.

لم تقتنع بعد أنّه ما عاد لها، في زحمة من عمرها التقته فنسجت معه أروع حكاية حبّ، عاشت تفاصيلها وطقوسها بولهٍ كما لم تعرف الوله من قبل، حلمت بمستقبل لا فراق فيه، لكن حكايتها انتهت بمأساة، وحكايته أنبتت حبّاً جديداً لم تكن سلام البطلة فيه.

فتحت له مدن أحلامها ودعته لدخول قلبها، رقصا سويّة عند شريان القلب، وفيه بنت قصوراً من

الخيال سكنتها معه، إلى أن هرب الأمير قبل موعده، ليتركها وحيدة على ضفاف الحبّ تقتات. لقد انهار القصر على رأسها في غمضة عين دون أن يتلفت وراءه ليرى الضجّة التي أحدثها في قلبها الهش.

نسي أو ربّما تناسى من سلام ومن هو بالنسبة لها، فهو عيناها التي ترى بهما، هواؤها الذي تتنفّسه، دمها الذي تحيا به، وعند الرحيل لفظها من أنفاسه وكأنّها كانت عبئاً ثقيلاً عليه.

ومع أنّ رحيله قد قارب الأسبوع إلّا أن صوته مازال في أذنها يتلو عليها خطاب الوداع، صورته –وهو ينظر إلى الأرض– مازالت مثبّتة في عينيها وماكثة، رحل الأمير لكن أنفاسه بقيت في قلب سلام تخنقها،

وطيفه مازال يلاحقها ليمزّقها ويدميها ويتركها جثّة لا تصلح للحّب من بعده.

حاولت نسيانه بالعمل ليل نهار، لكن كل السبل كانت تؤدّي إليه، في عينيها تراه، في المرآة وفي هداياه تراه، في السقف رسمت صورته، وعلى جدران غرفتها رسمت عينيه، في رسائله تختبئ نبرة صوته بين ألغاز خطاباته، ولكن حين تعود لواقعها لا تراه، وكان هذا يذبحها ويعرّيها أكثر، فليت واقعها يصبح حلماً وليت أحلامها صارت واقعاً.

ذهبت إلى حيثُ لقاؤها الأوّل به، جلست تتذكّره وتتذكّر عناقاً كان هناك يوماً، تحت شجرة الكينا الضخمة عادت تتمنّى عودته إلى أطلال ذكراهم، لكن هيهات أن يعود، فمن يرحل بمحض إرادته لا يعود إلى

مكان شهد حبّه الأوّل يوماً، ومع أنّها تعلم أنّ لقاءه بات شبه مستحيل أو بعيداً إلا أنّ جوارح قلبها مازالت تنبض باسمه، مازالت تشعر بحضنه الدافئ يحيط بصدرها حيثُ كان حينها يأخذها إلى مدن الخيال.

الآن وهي في أمس الحاجة إلى لقائه ترفع عينيها نحو السماء الزرقاء وتتمنى لحظة واحدة فقط تكسر المسافات والبعد والفراق. عادت بنظرها إلى يديها اللتين قامتا بتمزيق ورقة سقطت من أعالي الشجرة لتسألها أسئلة عجزت هي عن الإجابة عنها.

- أترانا سنلتقي؟
- هل ستزول المسافات التي بيننا يوماً؟
- وهل أمسك بيده مرّة أخرى لنجول العالم بأسره؟

- هل سنقف يوماً أمام الغروب حيث تداعبنا النسمات العليلة، فيمسح حينها عبراتي وقت يشتدّ حزني ويضمّني إلى قاع فؤاده؟
- هل سيعود ليشاركني لحظات سعادتي وأناملي تداعب خصلات شعره؟
- متى تتحقق كل هذه الآمال، لتجمعنا حينئذٍ سماء واحدة وبيت واحد وأرض واحدة، ومثلنا مثل كلّ العشّاق تغدو المسافة بيننا معدومة؟

ولكن رغم آلامي وعذاباتي وأحزاني، سأنتظرك.. سأنتظر لحظة اللقاء.. سأنتظر..

لم تجد لأسئلتها أيّ إجابة! كيف تجيب تلك الورقة عما عجز أمير عن الإجابة عنه، فما كان منها إلّا أن صبّت جام غضبها على الورقة فمزّقتها ودهستها بقدمها

وكأنّها تنتقم من أمير، أمير الذي تخيّلته قابعاً بين يديها لا تلك الورقة المسكينة، ثم مضت إلى مكان آخر، مكان كان فيه الحب عنواناً لحكايتهما، ففرقتهما الحياة بغبائها.

جلست على مقعد في تلك الحديقة الملتفّة بالأشجار، استرقت السمع لصدى همسه داخل روحها، أمضت دقائق ثم ساعات وهي تستمتع بذكرى مؤلمة جاءتها فانتزعتها من الواقع لتعصر قلبها ثم ترحل، وهنا ملأ الدمع وجهها، إذ وقفت سريعاً لتخبره التريّث قليلاً، لكن سرعان ما اكتشفت أنها بمفردها ولا أحد قربها، وهكذا ظلت تقتات على ذكراه لتكمل حياتها حتى النهاية.

لم تعد تريد منه الآن شيئاً، فقط قلبها الذي سرقه وهرب به ساعة رحيله في غفلة منها، لتنعم بالعيش دونه، دون أن يتراءى لها كحبيب.

عادت إلى البيت وحيدة محمّلة بحقائب من ذكريات الحبّ الهاربة، ذكريات حبّ أزهر يوماً فأعقبه خريف ليتساقط كورق الشجر، غرب غرامها وانطفأت شموعها وبقيت وحيدة في عالمٍ كبير.

اعتزلت الحب للأبد.. طعنته كانت كفيلة ليصبح جرحها عقيماً غير قابل للشفاء، لم تكن تتوقّع أن القلب الذي بنى لها الحلم هو نفسه القلب الذي هدمه، كان هذا اختياره بعد اختيار أمّه، لم يدافع عن حبّه، ولم يصرّح للجميع أن في قلبه تسكن أخرى، بل وافق على الفور قبل طرده من القبيلة وتجريده من نسبه ولقبه، وتركها للعبرات والأحزان، لم تقترف إثماً سوى إثم حبّه، لن تنسى ذاك اليوم الذي أقبلت إليه فيه بحب بينما أقبل

إليها بجرحٍ في قلبها قد حفره، راحلاً دون أن يعير دموعها أيّ اكتراث.

رحل أمير عن ساحة سلام بعد أن سرق قلبها وحطّمه.. لا، لم يأخذه معه، بل حطّمه بعيداً عن مرآها كي لا تطالب به من جديد، وكي يبدأ هو بحبّ جديد.

لم تكن وحيدة في هذا العالم لكنها كانت تتجرّع الألم بمنأى عن الجميع، سلوى التي حاولت قدر المستطاع إخراج أمير من قلب سلام ودّت لو كان المصاب مصابها، ولا يمسّ قلب أختها أيّ سوء، لم تعرف سلوى الحب ولم تجرّبه من قبل، ولكن ما حصل لأختها فطر قلبها فكرهت رجال العالم قاطبة، ودعت على أمير عقب كلّ صلاة. حاولت قدر المستطاع أن

تستجمع في ذهنها جميع روايات أحلام مستغانمي كي تنسي سلام أميراً أو تجعلها تتناساه، وأول ما ابتاعت لها كتاب (نسيان.com)، ولكن كيف السبيل لنسيانه وهو العالق في قلبها كالشوك في القطن؟!

أمّا رنا –صديقتها المخلصة وحافظة أسرارها كسلوى– حاولت الترفيه عنها بمواساتها على طريقتها، أخذتها إلى المطاعم والمنتزهات، حاولت إقناعها بشتّى الطرق أن تنساه فهو ما عاد لها، وأن عليها أن تدرك ذلك وأن تستيقظ من غفلتها قبل فوات الأوان.

تباً لعادات بالية قادرة على قتل روحين في جسد واحد.

* * * * *

حان موعد زفاف أمير على من لم يهوها قلبه، كلّ شيء مجهّز كما أمرت والدته، أمّا هو فكان موافقاً على أيّ تعديل تطلبه والدته، ولم يفعل شيئاً سوى الإيماء برأسه نحو الأسفل، تركهم يفعلون ما يحلو لهم ويخططون كما يرغبون لا كما يرغب هو، خرج إلى الشرفة ليدخّن سيجارة كي تريحه من عبءٍ يجثم على صدره، عاد إلى حلمهما الذي جمعهما يوماً وهما متعانقان تحت ظلّ شجرة الكينا وقربهما ساقية الماء تسير رقراقة، الحلم صار واقعاً لكن مع غيرها، الصالة هي ذاتها، حلق لحيته كما رغبت، ابتاع الأشياء التي تحبّها وجهز منزله بها، أضحى عريساً كما تمنّته ولكن عريساً لأخرى، كان يعرفها منذ زمن بعيد ولم تكن في

قلبه بتاتاً ولن تكون، وكأنها غريبة عنه كمن ينطق بلغة لا يفهمها، سلام التي كانت معه في كلّ حلم وحدها محرّم عليها دخول الصالة.

جاء ذاك اليوم ليجلس بجانب أخرى لا يريدها، وكأنه جالس في مجلسٍ للعزاء، عيناه على الباب تحدّقان ينتظر دخولها، ومع أنّها لا تدري بهذا الحدث الأليم كان ينتظر من كانت لقلبه عاشقة ناسياً أنّ اليوم هو موعد الفراق الحقيقي، من اليوم هي الغريبة والدخيلة، وتلك هي الحبيبة والزوجة، تلك السعيدة بزواجها ترقص مع صديقتها وتضحك بملء فيها، ولا تعرف أنّ عريسها معها بجسده دون عقله وقلبه، سيمنحها جسده تفعل به ما تشاء، تطبع عليه قبلات كثيرة، ولكن حذار أن تقترب

من قلبه، فهذا الأخير سكنته أميرته ولن يسمح لأخرى بالعبور إليه.

انتهى حفل الزفاف وأخذ عروسه هيام إلى بيته الجديد بجانب مقرّ عائلته، لم يعرف بما يناديها، أيناديها باسم سلام كي يعشقها؟ أو يبقى محتفظاً بهذا الاسم لطفلته المستقبلية؟ حينئذ سيعشقها مرّتين، الأولى لأنها طفلته، والثانية لأنها أخذت اسم طفلته المحبوبة.

كان منزله من قبل مليئاً بالحب والأحلام قبل أن يموت الحبّ على عتبات العادات والتقاليد الغبيّة، هيام ابنة عمّه التي تصغره بعامين فقط لم يفكّر بها يوماً كزوجة أو حبيبة، كانت بمثابة الأخت له، والآن بفعل القدر والنصيب والقبيلة وفي ليلة متشحة بسواد القلب أضحت زوجته على مرأى من القبيلة، ستشاركه هذه

الزوجة مجمل حياته، وستمنع سلام من الاقتراب منه، لن تدعها تدمّر حياتها الزوجيّة وستدافع عن بيتها كلبوة شرسة لا تعرف من هو الخصم.

وقف قرب باب غرفته يستعد لبدء ليلة صاخبة بالحبّ الجديد، وجدها بانتظاره بفستانها الأبيض وكأنها ملاك الخير والفرح، دخل إليها واقترب منها فابتعدت خجلاً وحياء، استحضر في ذهنه سلام وعشق سلام ودلع سلام ليقوم بواجباته الزوجيّة، ضمّها إلى صدره بعنف حتى كاد يكسر عظامها، أغلق عينيه وطبع على شفاهها قبلة عنيفة، ثم فتح عينيه فوجد هيام تتلوى بين يديه خجلاً، ابتعد عنها قليلاً بعد رأى نار الحبّ تطلّ من عينيها، فهي ضحيّة العادات والتقاليد مثله، اقترب

منها مجدداً وأغمض عينيه ثانية ليستحضر وجه سلام مرّة أخرى فيقوم بواجبه الزوجي على أكمل وجه.

صب جام شوقه وحنينه إلى سلام بها، مارس الحبّ معها كما يليق برجوليته، كما يليق به وكأنّه يمارس الحبّ مع سلام، فعل ذلك وهو مغمض العينين، وفي خياله سلام تتأوّه بين يديه، لم يشأ فتح عينيه إلا بعد انتهاء مهمّته، فيقوم ويغتسل وحده وكأنه يغسل العار عن جسده، كأنّه يغسل رائحة جديدة فاحت على جسده، لكم تمناها أن تكون رائحة معشوقته.

* * * * *

عادت سلام إلى حياتها التقليدية، تأكل وتشرب وتنام وتعمل وتفكّر بأمير الذي أخبرها بزواجه المرتقب وتقاليد قبيلته الرعناء.

تركها مرّة أخرى جريحة في متاهته بعد أن أدماها بسهامه، السهم تلو الآخر، سرق منها نضارتها، تركها ذابلة جافة وحيدة نازفة تلملم شتاتها وتحاول استرجاع ما بقي من نبضها، تبكي عمرها المهدور، وفاءها المغدور، وحلمها المكسور، لم يتّصل بها بعد ليعانق إحساسها ويحتضن جرحها.

كتبت له وكأنّها تكتب أمانيها التي طارت في ليلة رياح باردة، ثم حطّت عند هيام لتتوّج بطلة في حكاياته فيما سلام تكتب له حلماً ما عاد لها:

فقط.. عد كما أنت كسابق عهدي بك، كم اشتقت لضحكاتك ترنّ في أذني! لابتسامتك وهي تضيء وجهك فتشرق بها أيامي، لهمسات حبّك، لأبيات عشقك، لجنون شوقك! هاتِ ظلامك وخذ نوري، هاتِ عبراتك وخذ ابتساماتي، هاتِ أحزانك وخذ أفراحي، هاتِ جراحك كلّها، ألقها عليَّ، أعدك سأعالجها، اغرز جراح من شئت في قلبي، لن أشتكي، ولكن حذار أن تغرز جرحك أنت مع جراحهم، فكلّ الجروح لها دواء عندي إلا جرحك لا دواء له.

ما إن انتهت من كتابة سطور الوجع والخيبة حتى مزّقت الورقة كما يمزّق قلبها الآن، جعلتها عشاء لنيران تصرخ في مدفأتها؛ لأنّه الآن لن يشعر بها، لم يعد من حقّها، لم يعد لها الحق في عتابه، لم يعد لها الحق في

سؤاله: لماذا؟ لأنه لن يصل إلى جواب. هو من حقّ هيام فقط، وحدها من يحقّ لها أن تعاتبه، ووحدها سلام من يحق لها ذرف المزيد من العبرات.

غرقت أكثر في محيط الأحزان دون أن يصل قاربه لنجدتها، دون أن تلمحه يسبح في محيط أبعد ما يكون عن محيطها.

ضاقت الدنيا في عينيها وبحثت عن ملجئه ليحتضنها، لكن لم يعد فيه متّسع لها، ضاق الحضن الذي كان فيما مضى يفخر أنّه لها وحدها، اليوم محرّم هو عليها ومحرّم عليه التفكير بها، ومع أن سلوى ما دأبت تحتضنها بين الفينة والأخرى، إلا أنها ظلت تريد ذلك الحضن الذي كان يشعرها بالأمان والسعادة، وكم

حاولت رنا التخفيف عنها بمواساتها، لكنّها كانت تريد منه هذا الكلام لترتاح هي وتغفر له قسوته.

في كل صباح كانت تذهب إلى المشفى لتعيش مثلها مثل كلّ الناس، ومع أن الحياة دونه تافهة إلا أنّها قررت أخيراً العيش بها كما أراد لها القدر، كانت تداوي جراح الجميع وتعجز عن مداواة جراح قلبها، تضمّد نزيفهم لكن الجميع عجزوا عن تضميد نزيف شوقها إليه، الشوق الذي بات ناراً تحرق صدرها، فما أصعب أن تشتاقه وهو لا يدرك سرّ شوقها إليه! ما أصعب أن تنتظره وهو لا يعلم أنّها بانتظاره! ما يؤلمها أكثر أنها بدأت تحبّه بصمت وتشتاقه بصمت، تعد أيام غيابه بصمت، وتكابد آلام الحنين إليه بصمت. كان صمتها مخيفاً موحشاً قاسياً مؤلماً، وكانت تسأل بصمت، فتجيب

بصمت دون أن تجد لصمتها أي صدى، حتّى قلبها كان يحترق بصمت.

وفي كل ليلة حين تدقّ الساعة معلنة منتصف الليل تعلن عن ولوج الحنين والشوق من الباب لتستقبلهم بالحزن والدموع، كان الحنين يذيبها كالشمع ويسكبها كالماء، في حين يأتي الحب فيمنحها السراب ويرسم لها الوهم بلا حدود، يلتصق الحزن بها ويتودد إليها كصديق لا يفارقها، صديق يخشى غدر الأيام، محضراً معه الشوق فتنحني كالأغصان المثمرة، يبعثرها كالزجاج المكسور، وحيث تنسكب الدموع لتقيم مسكناً على وجنتيها.

عرفت بزواجه منذ فترة، وعرفت باستحالة عودته إليها، بكته كثيراً ورثت حبّاً مازال صغيراً، حباً لم يعرف

الحياة بعد، قتلوا حبّها قبل أن يكبر فيضيء العالم، قتلوه قبل أن تصرخ في الأعالي وتعلن عن مدى سعادتها بهذا الحب، قتلوه قبل أن ينضج، أما أمير فقد تعلّم معها الحب، ثم ذهب ليمارسه مع غيرها.

رضخت أخيراً لواقعها، لا رغبة منها، بل استسلام ويأس انقادت لهما بكلّ خضوع.

* * * * *

بعد كلّ المحاولات السابقة لنسيانه عاد إليها ليوقظ في داخلها وهم الحبّ، عاد إليها بعد ثلاثة شهور ليخبرها أنّه لم يقوَ على النسيان، فهي خالدة في قلبه لا تزيلها نساء العالم جمعاء.

اتصل بها ليخبرها بشوقه لها وندمه لمقاطعتها، بشوق يكاد يذيب الصخر بلهيبه. رفضت في البداية كي لا تسمح له بالعبث في مشاعرها مرة أخرى، لن تعطيه قلبها مجدداً كي لا يدمّر ما بقي فيه، خافت على قلبها من طعنة جديدة لا تشفيها منها الأيام ولا السنين، خشيت أنّ يتفوّه بالجريمة التي اقترفها بحقّها، وإن كان عقلها قد صدّق وقوع هذه الجريمة البشعة إلّا أن قلبها يرفض التصديق.

قبلت أخيراً على مضض أن يخبرها بأملٍ كاذب ألا وهو تكذيب الخبر، جرعة من الوهم يسقيها إياها كي تبقى على عهد حبّه وفيّة. كانت تريد منه لحظة واحدة فقط يكذب بها عليها، يخبرها بهروبه من حبّها الجارف الذي كان يريد إغراقه كي ينقذ ذاته ويسترجع نبض قلبه

ليعود إليها ككلّ مرّة أقوى، عاشقاً محترفاً في الوله والغرام، لكنّها تبقى أكاذيب مرتبطة بالوهم والخداع، أما الحقيقة فتلوح في سماء واقعهما، رافضة هي لها، مقتنع هو بها.

لم تتحدّث معه عن زواجه، كانت تحاول نفي الخبر عن عالمها، حيثُ أقنعت ذاتها أن هذا الزواج لعبة من ألاعيب أمير كي يرحل عنها ويسلبها كل أملٍ في الرجوع إليها.

ومع ذلك كانت تدرك أنّه أتى لأجلها هي، ولأجل أخرى سيرحل عنها، بعد لحظات قليلة سيرحل كما جاء ويختفي كالوهم، سيرحل دون وداع، فقد اعتاد الرحيل هكذا، بقلب بارد اعتاد الرحيل، فعادات قبيلته هي التي

أصدرت عليه الحكم بالنفي إلى أخرى تستقرّ بين ضلوعه دون أن يفتح قلبه لتلجأ إليه.

هناك التقيا، في تلك الحديقة الصغيرة وشجرة الكينا صديقتهما، تغمرهما بظلّها الكبير، ترمي بأوراقها هدية لهما، سعيدة بلقائهما الذي قصر ولم يكن طويلاً، جدد العهد معها بحبّ لن ينضب، ومع أنّ هناك من سكنت بيته، لكن قلبه كتب لها فقط.

وافترقا بعدها..

افترقا دون وعود بغدٍ جديد، غد لن يكون لهما، سيكون لغيرهما، هو مجرّد لقاء صغير برد نار قلبيهما، ثم سار كلّ منهما في دربٍ أبعد ما يكون عن درب الآخر، وحدهما القلبان تعانقا ساعتين تحت شمس المغيب.

ظنّت سلام أنّه عاد إليها فعلاً وأنه سيبقى معها شاء من شاء وأبى من أبى، فبدأت بإرسال رسالة حبّ في كلّ صباح له، توقظه على شوقها وهيامها.

في الساعة السابعة صباحاً من كل يومٍ تتزيّن وتتعطر لتبدأ موعدها مع الحب من خلف شاشة هاتفها الصغيرة، ركنت كتاب (نسيان.com) على الرفّ العتيق لتعيش مواعيدها الغرامية وتنسى النسيان وكاتبته. سلام تلميذة كسولة لم تستمع لنداء معلّمتها الصارخ بالنسيان، بدلاً من رسالة الحبّ في ذاك الموعد الغامض كان يجدر بها أن تجعله موعداً للنسيان، فرغم أنها ستتألّم كثيراً في بادئ الأمر لكنّها سترتاح لاحقاً، وهذا ما كانت تخشاه سلام فلا راحة لها بعيداً عن حب أمير وقلبه. لقد كانت راضية بالقليل من الحبّ بين الفينة والأخرى على

أن يختفي من حياتها إلى الأبد، فهو بالنسبة لها الهواء الذي تتنفّسه، ودونه تختنق، إذ لا قدرة لها على العيش دونه حتّى لو كان وجوده وهماً يبقيها على قيد الحياة.

غاب ستة أشهر لم يتواصل معها خلالها أبداً، وكأنّه أراد إقناع نفسه هو الآخر أنّها لم تعد تصلح زوجة له، إن كان مجتمعه قد رفضها من قبل مرة فسيرفضها الآن عشرات المرّات، له الآن زوجة تهتم بشؤونه وطفل سيأتيه قريباً، وربّما سينسيه سلام، لكن لا.. حتّى وإن تزوّج عشرات النساء لن يدخل قلبه غيرها، وإن أنجبن له مئة طفل لن ينسى حبّه الأزلي والأبدي.

اتصل بها ليخبرها بكمٍّ هائل من الاشتياق وأن العيش دونها لا يستطاب، هي المعادلة الأصعب في

حياته، وحدها من كسرت ظهره ووحدها من تستطيع تضميد جراحه.

هذه هي عادته منذ أن تزوج، ككل الرجال الشرقيين يغيب متى شاء ليحضر متى أراد، وحين يعود يجد سلام في موعد مع حديث تنشئه معه، في موعد مع عينيها العسليتين اللتين كانتا تذوبان أمام نظرة اشتياق تقفز من عينيه.

اتفق معها على موعد لن يخلفه، مواعيده تسير كما خطط لها، لم يتخلّف عنها يوماً، كيف وهي معشوقته المدللة؟!

أعطته موعداً في حديقة المشفى، كانت الحديقة كبيرة ومليئة بالأشجار الوارفة الظلال، وفي داخل

الحديقة دبّرت لهما الحياة مقعداً صغيراً، هناك راحا يتهامسان بهمسات ولهٍ وعشق، بدأ قلبه يدقّ سبعة آلاف دقة في الثانية الواحدة، في حين ارتجفت أضلاعها وكأنّها مصابة بنزلة بردٍ قاسية، قام ذهنها بعملية مسح لكلّ ما فيه ليبقى فيه أمير فقط، رحل الكون من ذهنها، لا بشر فيه ولا حيوانات ولا أشجار ولا حتّى أحجار، وحده أمير أتى ليسكن عالمها.

أخبرها أشياء كثيرة عن حبه وأشواقه، جميعها استقرّ في ذهن سلام كدواء تتجرّعه كي يحميها من مصائب الدهر، فكيف إذا كان هو الداء والدواء؟!

ستة أشهر وهو حبيس البيت إلا للعمل، توقّفت حياته وتوقّف الزمن منذ آخر لقاء جمعهما، لم يعرف كيف يتعايش مع الحياة، ولأوّل مرّة ينهار أمامها ويخرج

ما في جوفه من حرائق وأعاصير كادت تلتهمها، استخرج من حلقه الوجع والألم، كان دائم البحث عن شيء ضائع لم يجده، أتراه قلبه الذي مازال يعانق قلب سلام؟! أخبرها عن ندمه وأسفه وعن النار التي ظلت تحرق خلايا جسده كلّما دخل بيته ورأى أخرى تعيش فيه الحبّ معه. لم ينسها، إذ لم تفارق خياله ثانية واحدة، منحها وعوداً كثيرة، منها الاتصال الدائم دون انقطاع، فهل يفي بوعده؟

لم يكن وعده الذي قطعه بالنسبة له صعباً بل كان أسهل من السهل، فصار يزورها مرّة في الشهر، يأتيها في الصباح الباكر بعد انتهائه من عمله، يشرب القهوة معها وكأنّها ماء؛ لأنه يريد أن يبقى مستيقظاً منتبهاً بجوار طفلته، كان ينام وهو يتحدّث معها، فيفتح

عينيه ويسكب القليل من القهوة في جوفه ليبقى مستيقظاً على الدوام، عقله يحثّه على النهوض والعودة إلى أخرى بانتظاره فيما قلبه لا يقوى على مفارقتها.

استطاع أخيراً النهوض والسير إلى الأمام دون الالتفات إلى من تركها مذبوحة على رصيف العشق واقفة تتأمّل رحيله، ذهنها يخبرها أن هذا اللقاء هو اللقاء الأخير. في كلّ مرّة يكذّب ظنونها ليفاجئها بكمٍّ هائل من الحب والاشتياق، وفي كلّ مرّة ينسى قلبه عندها، فيعود ليأخذه ويغرق حينها أكثر في محيط حبّها، وإذا ما حاول إنقاذ نفسه منها هرب بسرعة قبل أن تسحبه في اتجاه لا يرغبه عالمه، لكنه يعود لينسى قلبه معها. طال غيابه هذه المرة، انقضت أشهر ثلاثة لم يتّصل خلالها ولم

يترك لها مجالاً للسؤال عنه، كان كالزئبق في يدها يهرب منها كلّما حاولت الإمساك به.

فجأة دون سابق إنذار يضيء هاتفها، يزيّن اسمه شاشتها الصغيرة، تهرع إلى هاتفها، فتسمع صوته قادماً من البعيد يخبرها بحنين لا يؤجّل، وحدهما في موعد جديد والحب ثالثهما.

بكامل أناقتها ذهبت إلى الموعد المحدّد، في ذلك اليوم لم تشهد بعض حارات الشام وشوارعها نكبة عشقهما بل شهدته المدينة كلها، دمشق التي نزفت حين نزفت جراحهما احتضنتهما كأم حنونة رافضة قسوة مجتمعهما الظالم.

على قاسيون وقف يصرخ شاكياً باكياً حبّه الذي استحال نبضه، شكا لدمشق مجتمعه الجائر الذي تحكمه

عجائز لم تعرف الحبّ يوماً، قلوب لا تعرف الرحمة، شكا تعبه من حياة لا تشاركه حبيبته فيها، كلّما حاول الفرار منها إلى درب بعيد يجد الدرب وقد اتخذ شكلاً دائرياً يوصله إليها دون أيّ تفكير بعقله، فقلبه من يقوده، وهو الذي حكم عليه بهذا الحب مدى الحياة، فكيف يقوى على النسيان؟!

كطفل صغير تاهت أمّه بين الزحام كان، وبعد ساعات من البكاء المتواصل وجدها، تراه يخشى العودة دونها ممسكاً بتلابيبها جيداً تائهاً دونها وضائعاً إن وجدها.

في تلك اللحظة استطاع تدخين نصف ما وضع في علبة السجائر دون أن تأخذه الرحمة بواحدة منها، صبّ غضبه على سجائر لا ذنب لها سوى أنّها وضعت

في علبته عن طريق عمّال المصنع، حينئذٍ أخذت سلام منه العلبة قبل أن يكمل مجزرته التي بدأها.

مدّ يده ليأخذ منها العلبة، فامتنعت عن إعطائها له؛ لأنّها لا تريد منه إنهاء حياته، فحياتها ستنتهي حتماً معه. أمسك معصمها بقسوة عاشق حتى كاد يفتت عظامها. صرخت من الوجع الذي أحدثه، كانت تنظر إلى عينيه الحمراويتين وهما يشعّان جمراً ملتهباً، وحين التقت العيون العاشقة أخذها بقوّة بين أحضانه وعانقها عناقاً شديداً كأنّه يريد تخبئتها بين أضلاعه، وبكيا كثيراً.

لأوّل مرّة يبكي أمير، بكى كثيراً، وبكت هي أكثر منه، تمازجت العبرات لتروي لشام المجد خيباتهما، كفرعين متعانقين على ذاك الجبل لا يفرقهما شيء سوى الموت، لكن الموت بريء مما نسب إليه من تهم.

كانت سلام تعتبره الصخرة التي تتكئ عليها، لكن صخرتها الآن هشّة لا تستطيع الاتكاء عليها.

استطاعت الإفلات من قبضة عناقه، مسحت دموعه الكثيفة بيديها الصغيرتين، فأمسكهما وطبع عليهما قبلة حبّ لا تمحوها مساحيق التجميل كلها، قبلة ستبقى إلى الأبد موشومة على ظاهر يدي سلام الناعمتين وباطنهما.

أدركت سلام حينها أنّ مشاعر أمير مخزّنة لها وحدها، وأنّه مهما مضى من عمريهما لن يفرّق بينهما كائن من كان، فمهما غاب عنها واختفى سيعود إليها ليحتمي بصدرها، وستعود إليه كي تختبئ في ياقته وتشكي إليه قسوة الزمن. أيقنت أنّها ملكة قلب أميرها، وما من أخرى قادرة على إنزالها عن عرشها، ستبقى

وحدها تحتل ذاك الجزء في أيسر صدره شاء من شاء وأبى من أبى.

تشابكت أيديهما، ثم مشيا في حارات الشام وشوارعها العريضة، أوصلها إلى الحافلة وتاه بين الزحام حتّى ما عاد له أثر.

عادت إلى البيت فراشة تطير لا يستطيع أحد كسر جناحيها، ولكن نسيت أنّ الفراشة حين تطير عالياً تصبح عشاء لنار تلتهم أجنحتها ثم تتفنن في تعذيبها.

* * * * *

(موعد مع الانتظار)

لا شيء يذبح المرأة كزفافها إلى رجلٍ ما، وفي قلبها رجل آخر

لم أعد احتمل فكرة اللقاء بشخصٍ جديد، إنه يرعبني تخيّل لحظة مصارحة طويلة أقول فيها كل الأشياء التي قلتها سابقاً، أعلم جيداً أنه لن يفهمني أحد بسهولة؛ لأنني عندما أتحدث عن أمرٍ قطعتُ فيه آلاف الأميال تفكيراً ولم يمشِ فيه غيري خطوة واحدة لن يشعر بي، فأنا أشرح شعوراً جال في قلبي كل ليلة ملايين المرات ولم يطرق قلبه ليلة، ليس ذنبه.. بل هي المسافة الهائلة بين التجربة والكلمات.

(اقتباس مجهول)

حين بدأت سلام تعيش حياتها كما أراد لها القدر لم يعجب الحياة ذلك وكأنّ جزءاً من قلبها لم ينكسر بعد، فأرسلت إليها سهامها لتدميها بوابلٍ من الجراح والآلام.

بطل حياتها الجديد هو مالك الذي سينتشلها من أحزان أوقعها بها أمير ليغرقها في عبراتٍ لن تنجو منها مطلقاً.

جاءها إلى البيت خاطباً، أغرته تلك اللوحة البيضاء الكبيرة المعلّقة على عمود الإنارة مقابل حارتها، وقد كتب فيها: (الطبيبة سلام).

دخل من باب البيت الحديدي ككل الشبّان الرافضين إقامة علاقات غراميّة تافهة، كان مالك واقعياً بخلاف أمير. شابٌ أسمر البشرة، ذو عينين صغيرتين سوداويتين، شعره أسود أملس، يكبر سلامَ بخمسة أعوام.

جلس أمام والدها واضعاً ساقه اليمنى فوق ساقه اليسرى، راح يدخّن سيجارته ويتحدّث بكلّ فخر عن تجارته الرابحة، وأنه لا ينقصه في الحياة شيء سوى زوجة كسلام، زوجة يفخر بها في كل محفل.

رفضت سلام مالك المغرور، رفضته رفضاً قاطعاً، قبّلت يد والدها بعد أن رحل الخاطب الجديد وتوسّلت إليه أن يرفضه، لا تريد الزواج الآن، هذه هي حجّتها لإقناع والدها، لكنها كانت ترفض الشبان بحجّة أنهم لا يشبهون أميرها في شيء.

رفض والدها توسّلاتها ورجاءاتها ودموع عينيها بحزم وإصرار، فعلى حدّ قوله مالك رجل لا يعيبه شيء، وهي ستعيش معه بسعادة وهناء.

ولرفضها كلّ من تقدّم لها حيثُ الناس في مجتمعها يزوّجون الفتيات في الخامسة عشرة بدأت الألسنة تلوك سيرتها وكثرت الأقاويل عنها، لذا أراد والدها إسكات المجتمع ووأد فتنته، ناهيك عن ذلك بأنّ سلام كانت تعيش في مجتمع بدائي فاعتبرت عانساً، لقد كبرت، وما عاد أحد من الشبّان يفكّر بها كزوجة، فمجتمعها يزوّج الفتيات وهنّ في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة.

دخلت غرفتها تبكي خيبتها، لكنّ سلوى اقتحمت غرفتها لتواسيها بصمت كاد أن يفتك بها، لا تدري ما

تقول لها سوى خوض مغامرة جديدة مع مالك، فربّما أنساها أميراً، لكنّها رفضت ذلك بدموع انسكبت على خديها. بكت أميراً كثيراً، فلا يمكن أن تصلح زوجة لرجل وفي قلبها حبّ عمرها ماكث فيه، كيف ستعيش مع هذا وفي صدرها يسكن ذاك؟!

اتصلت بأمير لتخبره بكربها الجديد فما كان منه إلا أن صمت، وأعقب صمته صمت أطول، ومن ثم قطع صمته بالمباركة وبأمنياته لها بالسعادة الزوجيّة.

صرخت فيه:

– كيف قادر تتحمّل فكرة كون لغيرك، كون مع غيرك؟!

ردّ عليها بألمٍ فاق ألمها:

– لا تزيديها على قلبي... الله يسعدك.

أغلق هاتفه كي لا تذبح قلبه وتسلخه أكثر مما فعله به قومه. ها قد استعاد برودته وقسوته، تركها تصارع وأدها وحيدة، هي الأنثى صرخت في مجتمعها رافضة نحرها، وهو الرجل ما استطاع الصراخ كصراخها، ومع ذلك لم تصل إلى آذانهم تلك الصرخات المستغيثة المطالبة بحريّتها من زواج لا ترغبه.

شعرت بأنّها وحيدة، فالكون بأرجائه اجتمع ضدّها، حتى سلوى ورنا أقنعتاها بالموافقة كي تنسى ما حلّ بها، عائلتها ومالك ومجتمعها كلهم مشوا صفّاً واحداً في جنازتها، لا مخرج للطوارئ كي تهرب من ورطة كهذه.

في السماء السابعة كانت تطير فرحاً، وبلمح البصر هبطت إلى ما تحت الأرض السابعة، تكسّر

جناحاها وتحطّم قلبها وهوى منها، فما عادت تستطيع الوقوف على قدميها. ما حصل مع أمير حصل معها، فمجتمعهما واحد وعاداتهما واحدة، لكن القسوة على سلام كانت مضاعفة باعتبارها أنثى، والأنثى يجب وأدها، وإلّا فهي عار يجب خنق حريّتها. لم تشفع لها شهادتها ولا مكانتها العالية في مجتمعها، فالطبيبة ذات المكانة العالية ستتزوج كما تزوّجت صديقاتها بنات حارتها اللواتي لم يخضن تجربة الدراسة وتكوين الذات ولم يصلن إلى ربع ما وصلت إليه. كلّ ما فعله المجتمع أن أجبرها على زواج لا تطيقه، فقط لأنّها تخطّت سن الزواج، وأضحت في نظر الكل عانساً وجب الابتعاد عنها.

تمنّت كثيراً وحلمت أن يكون مالك هو أميرها، لا ضير إن تبادلا الأدوار ليوم واحد أو ليلة واحدة أو حتّى ساعة واحدة، ولكن هذه مشيئة القدر، مالك هو الذي سيكون زوجها، وذاك غريب عنها ممنوع عليه الاقتراب منها.

اتفق مالك مع الأهل وسار كلّ شيء كما أراده لها والدها، كلّ ذلك وسلام تبكي ألماً وقهراً على مرأى من الجميع، الكل سعيد ما عداها، لا يعرفون أنّها تبكي حبّ عمرها، ظنّاً منهم أنّها لا ترغب بالزواج من أجل استقلاليتها وحريّتها.

جاء اليوم الأسود الذي سترتدي فيه خاتماً نُقش عليه حرف جديد لم تتوقّع أن ينقش على خاتم سترتديه، وفي هذه الليلة سيلبسها إياه رجل آخر، رجلٌ لم تعرفه

من قبل، جاء إلى بيتها غريباً، والآن صار لها خاطباً، وبعد أشهر قليلة سيصبح زوجها، ستأتمر بأمره، وستناديه حبيبي.

في هذا المساء خاصمت كل الأشياء وقدّمت أوراق استقالتها من الحياة، لها في الحياة أمنية واحدة فقط، وهي النوم بين أهداب عينيه ولمس خلايا روحه النضرة.

أمسكت الهاتف بيدها رغبة منها بالسهر معه، لم تكن سهرة شوق وحنين وعتاب، وإنّما سهرة صمت، استمعت فيها لأنفاسه الصاعدة والهابطة، الهامسة باسمها، أرادت أن تسأله كيف تجرّأ الفراق عليهما؟! عن أيامها الباقية، كيف ستقضيها والمسافات بينهما تزداد بعداً كلّما اقتربا؟! أرادت إخباره أنه أمنيتها الوحيدة، فهو

مدينة حبّ خالدة، وهي سحابة من الحب تنظر إليه من بعيد وتمطر بكاء لفراقه.

الآن بات محرّم عليها التفكير به، في هذه الليلة تفرّع الدرب، انقسم إلى دربين متعاكسين، وسيمضي كلّ واحد منهما في طريقه دون الالتفات إلى ما وراءه وإلى ما خلّفه من أحزان تنهش قلبه.

ستمدّ يدها إلى الهاتف لتخبره بأوجاعها التي أبت أن تخمد، لكنها ستغلق الهاتف قبل أن تسمع صدى رنينه، ستتذكّر حينها أن الفراق الأخير قد وقع، فكلّ الأصوات مباحة لها بعد الفراق إلّا صوته، ربما ستسعفها الذكرى لزيارة أطلال غرامهما، ستقف وحدها تحت شجرة الكينا الشاهدة على حبّهما، وستقرأ لها أشعاره وخواطره،

وربّما ستشاهده هناك قد سبقها إلى شجرة العشق يتلو عليها ضحكاتها وهمساتها.

ستذهب إلى قارئة الحظّ لتسألها عن لقاء ما بعد الفراق، ستخبرها بلقاء في جنة عشق صغيرة، سيترافقان إليها يوماً ما، ربّما ستصدّقها، ولكن حين تعود إلى البيت ستعود إلى واقعها، فتبكي عذابها.

ارتدت الخاتم الذهبي، وألبسته الخاتم الفضّي المحفور عليه بعناية حرف اسمها، فراقصها على أنغام (يسمعني حين يراقصني)، وضمّها أمام الجميع غير آبهٍ بأحد، طابعاً على جبينها قبلة الملكية، قيده الذي قيّد إصبعها به أكبر دليلٍ على ملكيته لا على حبّه وهيامه.

تمّت حفلة الخطوبة كما أراد لها الجميع إلا سلام، زينوها بالحلي ومساحيق التجميل، وزينت نفسها

بدموعها، فكان كلّ من في الحفل يرقص على أنغام جراحاتها.

وبعد أيام حاولت إقناع نفسها بأنها أغلقت باب القلب في وجه أمير معلنة استقبال مالك، فربّما يمنحها السعادة في العيش معه وينسيها حبّها القديم.

وبالفعل حاولت إسعاد نفسها بحبّها الجديد لمالك، لكنّ الرياح جرت بعكس ما اشتهت سفنها، إذ كان جداراً أصم لا يسمع شكواها ولا يرى دموعها، لا يتحدث إليها بأحاديث مليئة بالمشاعر، متلبّد الأحاسيس كان، لأجل يومه يعيش فقط، يمنح حبّه واهتمامه لأقاربه جميعاً نساء كانوا أم رجالاً دون أن يمنحها جزءاً صغيراً من حقّها عليه كزوجة، وفي زحمة اهتماماته بأقاربه نسيها، نسي زوجة مستقبلية عليه أن يرعاها.

حاولت قدر المستطاع أن تغرم به وتجعله يهيم بها، ولكن كان هذا هو المحال بعينه، وهو الآخر عجز عن ملء الفراغ الذي خلّفه أمير في قلب سلام، حيثُ ترك ذاك الأخير فراغاً بوسع الكون، فشقّ على مالك ملؤه كلّه.

جرت العادة أن يأتيها متى أراد، يمنحها نصف ساعة من وقته فقط، وبعدها يهرب إلى أقارب ليسوا في حاجة إلا إلى محفظته السخيّة عليهم والشحيحة عليها. حاولت التخلّص من قيوده، فعجزت، خشيت من مجتمع لم يرحمها، مجتمع يضع اللائمة عليها دوماً، يلومها في كلّ مكان وزمان.

كانت تتشاجر معه أكثر مما كانت تعيش الحب بجواره، ومعها كلّ الحق في ذلك، فمن كان غرامها

الأوّل هو أمير ذو القلب المرهف لن تعشق مالك الخالي من المشاعر والأحاسيس، حيثُ سنّ قوانين كثيرة تحرّم عليها الدخول إلى قلبه والتمتّع بخيرات حبه، وكأنّ هناك أخرى تسكنه، ومن هنا بدأت حياتهما جحيماً لا يُطاق، واستمرّت كذلك.

* * * * *

لم يستطع الغياب عنها أكثر من ستة أشهر، أراد الاطمئنان على مكانته في قلبها، هل استولى مالك على قلبها؟ أم بقي القلب مخصصاً له فقط؟

أخبرته حينها أن يكفّ عن اتصالاته غير النافعة، فلا يجوز له الاتصال كما كان يفعل من قبل، هي الآن

لغيره ولا يحقّ لها الخيانة. أغلق الهاتف وفي قلبه نار من الألم تكاد تهبّ في وجوه الجميع ما عداها، أقرّ الآن بخسارته التي لا تعوّض.

في غفلة منه سرق مالك حلمه ليعيشه واقعاً، ويعيش هو الوهم بقرار من القبيلة.

مضت أشهر الخطوبة سريعة، كانت تتشاجر مع مالك كثيراً، وفي كلّ مرّة كانت ترمي الخاتم في وجهه، وتصرخ بوجه والدتها أنها لا تطيق الاستمرار معه، لكنّ والدتها ظلت تصر على ارتداء ابنتها الخاتم كي لا يعاتبها مجتمعها الذي لا يعرف الرحمة.

عاتبت سلام مجتمعها غير مرة، عاتبته بصوتٍ خافت كي لا يسمعها، ومن ثم كانت تعود لترتدي الخاتم كجارية وجب عليها إطاعة سيّدها.

اقترب موعد زفافها، وقبل الموعد بأسبوعين اتصلت به لتخبره باقتراب موعد سلخها، وأنه لا يجوز له الاتصال بها أبداً، ردّ على مكالمتها القصيرة، وتوسّل إليها أن يراها علّه يكحّل ناظريه بمرآها ويودّعها الوداع الأخير، ثم يسلّمها لمالك متمنّياً لها حياة سعيدة. وافقت على مضض فهو حبّ حياتها، لم تكن تخشى أحداً لا مالك ولا غيره، إن رآها ستعدّ ذلك مكسباً لها لا خسارة، أمنيتها أن تحصل معجزة في السماء تُرحِل مالك إلى البعيد، فينسى درب الرجوع إليها.

كان لقاؤهما على قاسيون هذه المرّة، فهو على دراية بهيامهما، يسمع شكواهما الغراميّة، وحين أطلّ عليها ورأته كما كانت تراه حبيباً لها وحدها، بكت وتكاثف الدمع مدراراً، وكأن البكاء قد احتبس في مقلتيها

منذ زمن، وحان الآن موعد هطوله، فربّما حوّل قلبها اليابس إلى روضة خضراء يانعة. حاول تهدئتها بسحبها إليه وضمّها إلى صدره، لكنها أفلتت من يديه، وصاحت به:

– ليش؟

– مو بإيدي.. قالها، وهو مطرق بنظره إلى الأرض من تحت قدميها.

– كان فيك تمنعو، كان فيك توقفو.

رفع ناظريه إليها واقترب منها أكثر، ثم قال بصوت أشبه بالهمس:

– كان بدّي سعادتك.

أخبرته عن مالك وتصرّفاته الغريبة، عن بروده وقسوته، فتفاجأ بما أخبرته به، هل هناك رجل لا يتمنّى سلام؟! من أيّ أصناف الرجال هو؟!

– هاد اللي رميتني بإيدك بحضنو، أنت تخلّيت عني، وهو ظفر فيني.

كان لقاء عتب أكثر منه لقاء وداع، يعرف أنّه أخطأ في حقّها كثيراً، لذلك لم يلتمس الدفاع عن نفسه، فما حدث قد فات أوانه، والآن لا ينفع الندم على شيء ولا يجدي.

أخبرته بموعد جنازتها المرتقب، ستكون حينها مع آخر لا ترغبه، وسيفتحان صفحة جديدة ناصعة البياض، وأمير ليس فيها، هي تدري أنها تكذب الآن على أمير وتدّعي القوّة، لكنها هشّة من الداخل وقابلة للكسر في

أيّ لحظة، لكن ما باليد حيلة، عليها إقناع ذاتها قبل أمير علّها تُجاري القدر بلعبته السخيفة، تشاجرت معه وتركته وحيداً مذبوحاً على قاسيون العشق يبكي، لعن حظّه مئة مرة، ولعن قبيلته ألف مرّة، وفي النهاية تمنّى لها النسيان وحياة تملؤها السعادة.

ذهبت سلام إلى الحديقة تبكي عمرها المسلوب منها، اتصلت برنا لتخبرها بألمها القاتل الذي شرخ ظهرها إلى نصفين، وفجأة ظهرت في هاتفها رسالة أرسلها أمير قال فيها: -هو القدر، أمر وصدر على قلبي بالحرمان.

عادت إلى البيت تجرّ أذيال الخيبة وراءها بعد أن رأت روحها تحتضر أمام عينيها، حين أدار لها ظهره في المرّة الأولى ورحل؛ رحل دون أن يبحث في قاموس

اللغة عن كلمة اعتذار ينقذها فيها، لقد اختار أيسر الدروب، درب الهروب.

ودّعت حبّ حياتها بعد أن فقدت ذرّة الأمل الأخيرة بأن تكون له ويكون لها، في عالم الأموات كانت تعيش، ومع أن همساتها مسموعة لدى البعض إلّا أن روحها قد فارقت الحياة، ففي قلبها فراغ باتساع الكون لا يملؤه سوى حبّ حياتها.

بعد أسبوع من لقاء الوداع، وقبل أسبوع من حفل الزفاف مرضت سلام، لم تشكُ ولم تتذمّر، ظلّت صامتة، وظل قلبها ينزف بصمت، لم يجد أحد دواء يشفيها من علّتها هذه، كان شفاؤها بيد أمير، وحده الداء والدواء، كانت تزفّ لقبرها بدل عرسها، لم يدرِ بألمها أحد سوى سلوى ورنا، ولكن لا سبيل لإجابة طلبها،

وحدها المواساة بصمت هي الحل، بينما كانت تشعر أنّهم يسحبون منها روحها دون مراعاة لمشاعرها.

وجاءت تلك الليلة، كلّ شيء مخطّط له كما طلبت، جعلته عرساً مميّزاً لعلّ هذا يفرح قلبها قليلاً، ولكنّ ذلك لم يجعلها سعيدة، كلّ من في الحفل سعيد، الكل يرقص إلّا هي، كانت جسداً فقط، لا روح فيها، وتزفّ لحجر بلا قلب، لتكتمل مأساتها هنا وتبدأ صفحة جديدة من عذابها في مملكته.

دخلت معه بيتهما الجديد وزغاريد النسوة من خلفهما تصدح وتهتف باسمهما، أغلق الباب خلفه وأقبل إليها سعيداً بإنجازه الجديد، قبّلها بعمق وسرق قبلة أطول من فمها، ضمّها إليه بحبّ جارف، فسلّمته جسدها

ليفعل به ما يشاء، هو له ومن حقّه أيضاً، وقريباً ستسلّمه مفاتيح قلبها بعد أن تنزع أميراً منه.

تزوجت إذاً.. كان ذلك بعد عشرة أشهر من الخطوبة، جعلتها طويلة لتتعرف مالك بجدٍّ واجتهاد، لكنّه كان كتاباً غامضاً لا تدري ما كتب فيه، كان كتاباً فارغاً كعقله الفارغ.

تزوّجته بناء على رغبة مجتمعها، وهو تزوّجها بناء على علمها وشهادتها ولقبها الطبّي، فكيف سيحصلان على الحب إن لم تبنَ حياتهما من الأساس على الحبّ؟!

كان مالك قويّاً وقاسياً، لم يعتد دفء العائلة بسب انفصال والديه وهو في سنٍّ مبكّر، هرب من مشاجراتهما العنيفة إلى أخوات والده، فعاش في كنفهم لسنوات، وقد

اعتاد عليهم كعائلة له أنسته عائلته، أضحى شغله الشاغل رضا عمته التي عاش في كنفها، وهذه سرعان ما خافت على محفظته أن تشحّ عليها بعد زواجه، فسرقته من سلام وحوّلت قلبه إلى حجر لا يلين.

همّه الثاني عمله الذي لا يسمح لأيّ شخص الاقتراب منه، لم يكن لديه وقت لمشاعر يحسبها تافهة لا قيمة لها ولا تعود عليه بأيّ نفع مادّي، فكان يتركها في المنزل لساعات تتجرّع الوحدة دون أن يكلّف نفسه عناء الاتصال بها للاطمئنان عليها، أما يكفيها منزل يؤويها؟! أمّا تلك المشاعر فهي حلم صعب المنال.

بدأت سلام حياتها في منزل زوجها كأيّ زوجة تسعى جاهدة لإرضاء زوجها، ولكن كان المنزل مليئاً بالجفاف والوحدة وينقصه الحب ليكتمل. لم تنسَ أميراً

وعشقه، وكم حاولت جاهدة نسيانه، لتقع على رأسها في أول حبلٍ لنسيانه، فيتدلّى خيط ذكراه مما يجعلها تعيش الحبّ معه لساعات قبل أن تستيقظ على واقعها. جفتها السعادة في منزلها هذا، وكرهت الدخول إليه، ورحلت مع أمير حين رحل.

تجلس ساعات وحيدة على الشرفة بعد قدومها من المشفى، لا شيء يملأ فراغها سوى أكواب من القهوة تجمعت على الطاولة أمامها بانتظار إفراغها كلّها في جوفها، تحتسي قهوتها في اليوم عشرات المرّات لعلّها تنسى ما عقدت العزم على نسيانه، فتقع في بئر الحبّ مع أوّل فنجان قهوة.

كان مالك لاهياً عنها لا مبالٍ بها، فإما عند أصدقائه وإمّا في عمله، وحين يعود إلى المنزل يعود

محمّلاً بهموم أصدقائه، لا طاقة له لسماع همّها وشكواها.

يأمرها فتلبّي، يتحدث فتصغي، تطلب منه فيهرول إلى سريره، يلتحف باللحاف آمراً إياها بالصمت الدائم، ورغم أنها كانت تطهو له الطعام بكل حبّ كان يأتيها إلى البيت ومعدته ممتلئة مما أكل عند أقاربه، في حين يتركها في المنزل تأكل وحدها مما طهت يداها. وبعد تدخين كم هائل من السجائر ينام ويبدأ بشخيرٍ متواصل، يتركها وحدها تلعن أميراً الذي رماها في حضن مالك، وتلعن مالك لأنه سرقها من حياتها التي كانت تحياها ليبقيها أمامه وكأنّها تمثال عليه تحنيطها أو جارية لتلبية رغباته الجنسيّة فقط. مالك يأمر وسلام تطيع، سلام

تطلب ومالك يرفض، يصمت ثم يشتم؛ لأنّها تطاولت عليه بطلباتها المحرّمة.

ممنوع عليها الاقتراب من مالك، فهو عاش حياته حرّاً وسيكملها كذلك، لا سلطة لزوجته عليه، ومحرّم عليها عتابه أو نهيه.

عاشت معه جحيماً لا يطاق، كانت بالنسبة إليه جسداً ومكانة، جسداً يفرغ فيه شهواته متى أراد، ومكانة يفخر بها أمام الأعيان بصفته زوج الطبيبة، جسداً بلا قلب أرادها كي يعرّيها متى شاء ويسلخها متى أراد. كان يهجرها لأيام وأسابيع دون أن يبادر لضمّها، وهي كانت ترتدي أثوابها الضيّقة الشفّافة التي لا تحجب ما وراءها، تتعطّر وتتزيّن وتأتي إليه، تقترب منه لتحتضنه فيرتجف وكأنّها غريبة لا يعرفها، يتذمّر منها ويطلب منها الستر

حالاً، ينام قبل أن يتهيّج وترتعد أوصاله ويدقّ قلبه لها، يتركها دون اهتمام ودون مواساة على ما فعله بحقّ قلبها، يهينها كلّ يوم، يزدريها حينما يعود إلى المنزل ويراها في ثياب ترتديها إكراماً له، وكأنّ ما تفعله لهو الخطأ بعينه، كان مملوءاً بما يراه على شاشة هاتفه من أفلام جنسيّة، يشبع غريزته بتلك الأفلام، يدخل الحمّام، يفعل العادة السريّة بخلسة منها، ويخرج إليها كارهاً لها.

كانت بالنسبة إليه مكمّلة لأثاث المنزل كاللوحة المعلّقة على الجدار، يريدها جميلة دون الاقتراب منها. لقد زهد بجسدها الذي طالما فتن الكثير من الشباب به، وتمنّى العديد من الرجال الوصول إليه.

هكذا كان يوم سلام يمضي بين عملها في المشفى كطبيبة حيث الكلّ يحترمها ويتمنّى نيل رضاها، وبين عملها في المنزل كأيّ زوجة قد سلب حقّها منها.

في يوم صيفيّ حار وبينما كانت في مكتبها تدرس ملفّ مريض تجاوز التسعين من العمر رافضاً أيّ علاج فرفضه الموت وأبقاه، حائرة في ملفه وحائرة أكثر في حياتها، شاردة الذهن، عيناها تقرأ ما كتب، وذهنها في عالمٍ آخر بعيد كلّ البعد عن مالك، كأنّ الساحرة الطيبة صديقة ساندريلا زارتها في ذاك اليوم ولاحظت شرودها وحزن عينيها، فأرسلت لها هديّة لا تقدّر بثمن.

طرق الباب طرقتين خفيفتين، وقبل أن تسمح للطارق بالدخول، فُتح الباب ليطلّ منه أميرها بقامته الممشوقة وجماله الجذّاب.

فغرت فاهها، وبحثت في عالم اللغة عن كلمة توازي دهشتها، لكنّ الكلمات فرّت منها واقتحمت حنجرة أمير ليبدأ بالتحيّة والسلام، لحظات قليلة سادها صمت حب وتفكير بماضٍ لن يعود.

كانت تفكّر به، فكيف خطرت على باله؟ لماذا جاءها الآن بعد ستّة أشهر من الانقطاع؟ أسئلة كثيرة حاصرتها وبحثت عن أجوبتها في محيط أمير.

جلس على الكرسي المقابل لطاولتها، وتحدّث إليها بارتباك لاحظته هي، وقطرات من العرق تهطل منها، القطرة تلو الأخرى.

بدأ حديثه بكلام أشبه بالهمس:

– أنا آســف، أعرف أنّه خطأي، كل كلمات الاعتذار لن تضمد جرحك.

طلب العفو والسماح منها مع علمه المسبق أنّها لن تغفر له قسوة قلبه، سحب سيجارة من علبته الموضوعة في جيب قميصه، أشعلها، ونفث الدخان منها طارداً إياه من فمه غير مبالٍ بتلويث هواء مكتبها، أصدر تنهيدة وجع وألم، ما كان يؤلمه أنّ سلام صامتة هادئة تستمع لصراخ قلبه الجريح واعتذاره بحقّها، تمنّى لو تكلّمت، لو عاتبت أو بكت خير من أن تصمت ذاك الصمت القاتل الذي أهانه أكثر مما لو نفثت نار حنقها عليه. أطرق ناظريه نحو الأرض، وأكمل:

– دعينا نتّفق.. نظر إلى عينيها حيثُ الحب منهما يشعّ، وأكمل:

– لنكن صديقين، فإن لم يكن لنا في الحياة نصيب في أن نعيش كعاشقين يجمعهما بيت واحد، فلتجمعنا تعاستنا التي كتبها القدر.. كوني صديقتي أشكو لك ألمي، وسأكون رفيقك أستمع لشكواك وأمسح عبراتك وأزيل الحزن من عينيك. كوني –يا صديقتي– لي صديقة، احملي ألمي، وامسحي غبار التعب عنّي.

نظر إلى تفاصيل وجهها مجدّداً وكأنّه يحاول أن يحفظ نظرات عينيها المتيّمة بغرامه، ثم قال بصوت يملؤه الشجن:

– حاولت نسيانك بزوجتي هيام لكنّي فشلت، لا أستطيع مضاجعتها إلّا إذا تخيّلتها أنت. لم

أستطع إعطاءها قلبي، فهي لا تشبهك في شيء، لم تفهمني ولم تساعدني على نسيانك، فعلت المستحيل كي أنساك، فقتلني شوقي إليك عند أوّل محاولة للنسيان، حنيني إليك قاتل محترف لا يعرف الرحمة والمغفرة.

صمت بعد أن أفضى لها بما في قلبه من آلام تجرّعها جراء بعده عنها، أفرغ الساحة لها لتقول ما عجز هو عن النطق به، لينطق قلبها ويخرس عقلها.

كانت على عكسه تماماً، لم تنظر إليه حين بدأت بالكلام، كانت نظراتها مثبّتة على يديها المتشابكتين، كأن لسان حالها يقول له: (لا مكان لك بين هذه الأصابع، الفراغات التي بينها لم تعد لك، هناك من ملأها بعقله دون قلبه).

– أستطيع مصارحتك الآن في كلّ كلام ترغب مني التفوّه به، لست سعيدة كما كنت تظن، رميتني بين أحضان رجل أفرغ شهوته الذكوريّة في جسدي ورماني بعدها لقدرٍ لا أعرف إلى أين يسير بي؟ هل تعتقد أنّ مالك مثلك؟ يعشقني كما عشقتني أنت؟ يعتبرني أميرته كما كنت تقول لي؟ لا يا صديقي.. أنت مخطئ إن كنت تفكّر في ذلك، لا أعرف ما الذي دفعه للاقتران بأنثى لا يحبها، كلّ الذي أعرفه أنه أغرته تلك اللوحة المعلّقة على جدار الصالة في بيتنا، تزوّج الطبيبة ليفاخر أهله بها، حيثُ كانوا يعتبرونه فاشلاً على الدوام، مالك الذي يفتقر إلى الشهادة الجامعية يتزوّج من طبيبة. بعدها رماني في بيته دون منحي أيّ جرعة من حنان أو اهتمام كي أكمل معه بقيّة عمري، بدأت أتسوّل لحظة

حبّ منه تساعدني على العيش معه، رفض منحي إياها ورفض حبي، رمى قلبي تحت قدميه غير مبالٍ به.

عاد الصمت إلى ساحتهما من جديد بعد أن أفرغت ما في جعبتها من كلامٍ كان سجيناً في قلبها، كان الصمت يحرّضها على إكمال حديثها، ويحرّضه على مواساتها، لكنّها فضّلت الصمت مع قليلٍ من العبرات التي كذّبت ادعاءها القوّة والصلابة.

وهكذا افترقا على وعود باللقاء، يكتبها القدر وتخرجها الدنيا، ويمثّلانها سويّة على خشبة مسرح الحياة. وعود بالحياة كلّما عصفت رياح الزمن بأحدهما.

وافقت على ذلك؛ فعشقها له إدمان، ولا يرويها منه سوى حبّه لها.

لأوّل مرّة أسمعها تغنّي، كان غناؤها يصل شرفتي، فتتراقص الثياب على حبل الغسيل، نغمات عذبة كانت تصدح بها حنجرة سلام.

تركت ما في يدي من أوراق كنت أكتبها لأرى ما الذي جدّ في حياة تلك المرأة حتى تتفاءل هكذا، وهي الكئيبة دوماً. خرجت إليها مساء ذاك اليوم، وطرقت بابها طرقات عنيفة. فتحت الباب وعانقتني بقوّة كأنّها ترجو منّي الأمان، وكأنني على هذا الكوكب كنت الوحيدة القادرة على الاستماع إلى ضجيج قلبها الصارخ بالحب والنسيان معاً، كانت تتأجج كما البركان وتلتهب كما النيران.

أدخلتني بسرعة، وقصّت عليَّ ما حدث بينها وبين أميرها، لم أسمعها بقدر ما تهت في لمعان بريق الحبّ في عينيها.

بدأت تقفز على الأرض وتغنّي للحبّ ناسية الطفل الذي في أحشائها، هو ليس من زراعة أمير، من زرعه تمقته الآن؛ لأنه حجر العثرة بينها وبين غرامها ذاك.

هدّأت من روعها كي لا يلمح مالك حبّ حياتها في عينيها، أخبرتها أن تحتفظ به في قلبها فقط، فلا هو لها، ولن تكون هي له، استجابت لنصيحتي لكن قلبها لم يستجب.

أكملت حياتها مع مالك في حين ظل قلبها يخفق لأمير، وعادت الاتصالات بينهما كما السابق، هو

يطمئن عليها من ظلم مالك وإجحافه بحقّها، وهي تذرف عبراتها وتشكوه إهمالاً جديداً لمالك بحقّ فؤادها.

ابتعد مالك عنها أكثر فأكثر، كانت تعتقد أن العمل من جرفه بعيداً عنها أو أن أقاربه سحبوه إلى ساحتهم.

لكن كان هناك شيء أكبر من عمله وأقاربه، وهو ما جرفه بعيداً عنها، حبّ لمع في سمائه وهوى بين يديه، تمسّك به رافضاً زوجته وطفلاً له في أحشائها، حيثُ أعطى موعداً لقدومه إلى الحياة والتشارك مع والدين يرفضان بعضهما.

أدركت سلام الأمر، وعرفت من تكون حبّه الجديد، هي واحدة من بنات أقاربه اللواتي يسهرن كلّ ليلة في عقر دارهنّ. عرفت ذلك حين حملت هاتفه كي

تتصل بهاتفها الضائع على الدوام بسبب انشغال عقلها بكثيرٍ من الأشياء، وصلت رسالة إلى هاتف زوجها وفيها صوت أنثوي مغمور في أحرف الرسالة، تبثّه أشواقها وحنينها. فتّشت في هاتفه لعلّها تعرف أكثر عن مصدر تلك الرسالة، فوجدت ما لا يقبله عقل أيّ أنثى، وخاصة عقل سلام.

إذاً لمالك قلب ينبض بالحبّ، مالك ذو القلب القاسي يعرف كيف يعشق ويغرم، لم تعجبه سلام وهي في ببيته أميرة، فهرع إلى بنات الهوى يعشق إحداهن، إذ هنّ أمهر منها بالمضاجعة والكلام المعسول.

إلى من تشتكي أنّه هو من دمّرها داخلياً، واقتلع ورودها الحمراء، وعاث الفساد فيها، محدثاً الخراب في بساتين عمرها؟! لا أحد سواه سقاها الحزن قطرة تلو

القطرة، وسرق سنواتها لحظة تلو الأخرى، ومزّق أحلامها شريحة وراء أخرى، وحده من علّمها الكره بعد الحب والقسوة بعد الحنان والغدر بعد الوفاء، لذلك قررت الاحتفاظ بقلبها لمن يقدّر حبها.

بكت كثيراً في تلك الليلة، واتصلت بطبيبها الخاص تشكوه كربها الجديد، لكن الألم الأكبر كان من طبيبها وليس من زوجها.

جملة قصيرة اختصرها أمير في حديثه مع سلام، قال لها:

-هو يخون، وأنت تخونين، أين تكمن المشكلة؟

لكنّها قد خانت زوجها بسب إهماله وظلمه لها، لم تخنه من فراغ، بررت ذلك بأنّ لها الحق في خيانته على الدوام، دون أن يكون له الحق في ذلك.

صمت قليلاً، ثم طلب منها عنوان بيتها ليأتيها ويسرقها من مالك الذي لم يقدّر الجوهرة التي بين يديه، يسرقها وفي أحضانه يرميها، ألحّ على عنوان بيتها فيما رفضت إعطاءه العنوان بقوّة، خافت منه، وهي المرة الأولى التي تخشى فيها على ذاتها من طيشه. وحين أدرك إن إلحاحه سيعود عليه بالرفض مجدداً واساها ببضع كلمات لا تجدي معها نفعاً، ومع أنّها لم ترغب بمجيئه كي لا تنقلب الطاولة على رأسها وتصبح هي المتّهمة تمنّت من قلبها أن يأتيها لتبكي في أحضانه وتشكو إليه ظلم مالك وخيانته بحقّها.

قررت بعد أن مسحت دموعها بكمّ قميصها خوض المعركة لوحدها، لن تبقيه لها، فهي لم تتعوّد على الهزيمة، وحتّى لو لم تكن ترغب به، ولو كانت

ستتركه عاجلاً أم آجلاً، لكنها ستتركه بمحض إراداتها، لا أن تأتي أخرى لتسرقه منها علناً في وضح النهار وتحت ستار الليل.

أقفلت الخطّ وهي شاردة الذهن، مشتتة الانتباه، غارقة في وحل من الآلام؛ لأنها كشفت عما في قلبها لحبيب عمرها، فبدلاً من مواساتها قلب الطاولة عليها، وجعلها مخطئة في حقّ مالك، منحها دور المتّهمة الخائنة لزوجها، وهذا آخر جوابٍ تمنّت أن يصلها منه. في الوقت ذاته أراد أن يواسيها بطريقته الخاصة، أراد لها الانتقام من مالك بطريقته هو لا بطريقتها، أراد أن يأتيها كي يعانقها العناق الأخير ربّما، لعلّها تبرد نار قلبه، لعلّه يستطيع نسيانها حين يمارس الحبّ معها، لكنّها

كانت عقدة الذنب الذي لا يغتفر، كمدينة أسوارها عالية جداً، والوصول إلى بابها شبه مستحيل.

تشاجرت مع زوجها شجارها الأعنف وخيّرته بينها مع طفلها وبين أخرى اختارها هو بمحض إرادته، وبالطبع اختارها هي، فهو لا يرغب بدمار بيته الجديد الذي راهن الكلّ على نجاحه، فلا يريد أن يخسرها ويخسر طفله.

سرعان ما انقضت تلك السحابة، رحلت تاركة أجزاء منها لتحيا في ذاكرة سلام، ولتتخذها فيما بعد ذريعة لتخون بقلب لا يرقّ لحال مالك وبضمير مرتاح، فثمن خيانته لها خيانات كثيرة تخونه فيها مع أمير.

عادت اتصالاتها مع أمير أكثر من قبل، ليحلو له اللعب في ساحتها، فكلّما ابتعد عنها مالك اقترب منها

أمير، حتّى حان موعد ولادتها، وفيه كان مسموحاً لزوجها الاقتراب فيما هو ممنوع على حبيبها، فمالك هو الزوج أمام الملء، وله الحق في كلّ ما يمسّ زوجته.

بقي عند الباب منتظراً قدوم طفله، إلى أن سمع صوته قادماً من غرفتها الصغيرة في المشفى الذي تعمل به، خرجت إليه الممرّضة لتسلّمه إياه وتبارك له قدوم صغيره وقيام زوجته بالسلامة. منح الممرّضة الشابة بعضاً من النقود شاكراً إياها على بشارتها التي أقبلت بها إليه.

دخل عليها هنّأها وبارك لها، وخرج كأنّه لم يكن معها قبل لحظات قليلة، ترك معها والدتها كي ترعاها، فهو لا يعرف ماذا يفعل لأجلها؟ سيأتي غداً ليصطحبها

إلى المنزل، وهكذا يكون قد قام بواجبه الأبويّ الجديد تجاه طفله، وبواجبه الزوجي حيال زوجته.

اتصل أمير بها وهنّأها على سلامتها، كان دائماً هكذا، يأتي حين يغيب ذاك، وكأنّ أحدهما شيطان والآخر ملاك. لم تحزن لغياب مالك بسبب اتصال أمير، وكأنّه قاب قوسين أو أدنى منها. نامت وهي تحلم به، وطفلها في حضنها ينهل من ثديها الحليب الذي تأخّر في الانسكاب.

جاءها مالك في اليوم التالي حاملاً حقيبة مليئة بالاعتذارات والتبريرات السخيفة، قبلتها منه سلام دون أن تعاتبه؛ لأنّها يئست منه ومن إهماله واعتذاراته الكثيرة.

عادت معه إلى منزلهما حيثُ كان بارداً كالثلج وقاسياً كالجليد، لم تعرف فيه الدفء مطلقاً، ولكن كان لزاماً عليها البقاء فيه كي لا يعاتبها المجتمع ويلومها، والآن وجب عليها حماية هذا المنزل أكثر؛ لأن فيه طفلاً يحتاج الرعاية من أبويه.

تعايشت مع واقعها، وللمرّة الألف يرفضها واقعها فتغوص في قاع الأحلام، كان يومها يمضي بين عملها كطبيبة في المشفى ومع طفلها الصغير ورعايته، بين قسوة زوجها وإهماله وشوق أمير وغرامه.

كثرت الاتصالات بينهما، كان مالك هو الغبي في الحكاية، لم يعرف بخيانة سلام أبداً، لكن زوجة أمير أنثى، وللأنثى غريزتها وحدسها الأنثوي الذي لا يخطئ، عرفت بخيانة أمير لها، لكنها كانت تبحث عن دليل

تدينه به، وها قد وجدته أخيراً، فرقم سلام كان لا يبارح سجلّ الاتصالات بتاتاً، اتصلت به فسمعت صوت سلام قادماً من الجهة الأخرى، عرفت أنها كانت محقّة في اتهاماتها، فزوجها خائن ولا تجوز به الشفقة.

بدأت بشتم سلام ولو كانت بجانبها لكان رذاذ فمها قد غطاها، من كثرة ما صاحت، هددتها إن لم تبتعد عن زوجها فستدمّر منزلها وستقوم بفضحها على الملأ.

سمعت سلام الشتائم وأصغت لها دون أن تتفوّه بحرفٍ واحد، فهي تدرك أن لها الحقّ في كلّ كلمة قالتها، فهي زوجته أمام القبيلة، وستقف قبيلتها وقبيلته في صفّها، واللائمة ستقع على سلام فقط. إنه هو من

أعطاها الشرعيّة لتدافع عن مملكتها، وأعلن سلام غريبة أمام الملأ.

آن الأوان كي تستيقظ سلام من كبوتها وتدرك أنّ أمير ومنذ زمن لم يعد لها، وليس لها الحقّ في المطالبة به، فمهما وقعا في بئر الغرام هناك عادات وتقاليد تحرّم وجودهما معاً، هناك قبيلة تمنع احتكاكهما.

إذاً.. من الغريبة في القصّة؟ سلام هي الغريبة، وفي لمحة من البصر سقطت جميع حقوقها دفعة واحدة، ولم يعد لها الحق في المطالبة ولو بجزء صغير تبقيه للذكرى.

حذفت رقمه وحظرته في مواقع التواصل الاجتماعي، اتخذت قرارها الألف بعد العشرين ألفاً أن

تنزعه من قلبها، وإن لم ينتزع ستدع قلبها له، وستكمل حياتها مع زوجها دون قلب.

* * * * *

بدأت الحرب القذرة في بلدي تهدم ما بناه الإنسان، تقتل الحبّ وتميت الفرح، وبدأ الناس يهربون إلى دنيا جديدة بعيدة عن حربٍ تكاد تفتك بهم، وكان أمير من بينهم، اختار القاهرة سكناً له، وقبل أن يغادر جاءها مودّعاً، جاءها باكياً على أعتاب حكايتهما، يتمنّى لها أعواماً سعيدة تقضيها بجوار زوجها وطفلها أمير، لقد أسمته أمير لتغمره بحبٍّ كبير، فتناديه وفي قلبها الشوق يتحدّث، تضمّه أمام زوجها وتجهر بحبّها له دون خجل

من ذلك، ستخبر الجميع أنّها عاشقة له، الجميع سيصدّقها، فلا أحد سيعرف ما في قلبها، وا أحد سيستطيع التفرقة بين الأميرين.

أمّا هو لم يستطع تسمية ابنته سلام بسبب معارضة زوجته التي عرفت من هي المقصودة، كم تمنّى تسمية ابنته باسمها لتكون أحبّ البنات إلى قلبه، يناديها متى شاء، ويغمرها بحبّه ورعايته.

ودّعها ليلحق بركب الطائرة المتجّهة إلى القاهرة، وترك قلبه أمانة لديها لتحتفظ به، لا تجرحه ولا تؤلمه.

غادرت مكتبها في هدوء، خافت على ذاتها أن تعيش ذكراه فقط، تمنّت ألّا يترك أثراً حين الوداع.

سارت في كل الدروب التي التقته فيها، كانت خطواتها على الثرى ثقيلة وعرة، رسمت على جذع كلّ

شجرة صادفتها حرفي اسميهما، بكت وتمنّت أن تكون حكايتهما حلماً يمرّ مرّ الغمام حال استيقاظها، حاولت العودة كي لا تضيع مجدداً في محيط ذكرياته، لكن الطريق كان أشبه بالمتاهة، فقد حاصرها من كلّ الجهات.

تحت ظلّ شجرة النارنج جلست، فهاجمتا رياح الحنين، لم تعرف من أين هبّت! كلّ ما عرفته أنّها كانت تنتظر عودته إليها، ليكذب سفره ويحتضنها هامساً في أذنها:

افتقدتك..

لم يكن الوداع كذبة يوماً، بل كان الحقيقة المؤلمة المرّة كالعلقم. تألّمت واشتكت وحدها دون أن يأتيها فيزيح عنها الهمّ بنظرة منه، انهمرت دموعها أكثر لأنّها

كانت تعرف أنّه لن يأتي ليمسح دموع عينيها ويهديها جرعة من النسيان ويشعل شعلة قلبها الذي انطفئ حين غادرها. لقد أضحت الأزمة أزمتين؛ لأنّها تدرك تماماً أنّ الطائرة الهاربة في زمن الحرب هيهات أن تعود. هي على يقين بقدوم هذه الساعة، لكنها تمنّت ألا تكتب في لائحة القدر، فجلّ ما تخشاه أن ينساها بمجرّد إقلاع طائرة الوداع.

هو كالأمس لن يعود، ومع ذلك ستناديه كثيراً، وسيعود إليها صدى صوتها محمّلاً بالخيبات مع كلّ هبّة ريح، ستبكيه كثيراً، وهو لن يدرك مقدار دموعها المنسكبة ولا حجم آلامها ولا عمق جراحها، ستغرم بمالك كي تنساه، لكن لن تفلح بذلك، وفي النهاية ربّما تموت

وتدفن وتطوي الأيام قصتهما دون أن تنساه، بينما قد ينساها هو.

تتذكّره كلّما مرّت عند أطلاله كالغريبة التائهة في أرضٍ لم تكتب لهما، لكن اسمه قد كتب بيدها على الأشجار، وستذكّرها الأشجار به إن مرّت بها يوماً. ستبقى تحتفظ به كالسرّ في أعماقها، والنبض في قلبها، والجرح في داخلها، والأمنية في خاطرها.

وقفت لتكمل المسير، لكنها عاودت الجلوس إذ مرّ في خاطرها خيال مرعب، وهو غياب الشمس وعودة الشتاء وتفتّح أزهار الربيع وهو بعيد. أرعبتها فكرة انتهاء سنوات عمرها دون أن يكون معها، قتلتها فكرة مجيء العيد وهو قرب زوجته بعيداً عنها، يشتدّ المطر

فيصحبهما وأيديهما متشابكتان ليتراقصا سويّة، خافت أن يهاجمها الليل فتبقى وحدها ويبقى هو مع زوجته.

ماذا ستفعل إن اشتاقت إليه وافتقدت وجوده؟ إن اشتهت عينيه وأخذها الحنين إليه؟

ستكبر ولا يكبر معها، ستبكي فلا يمسح دمعها، ستمرض فلا يداويها، وحين تموت ستموت دون أن يرثيها.

كلّ الأشياء بعده فقدت طعمها ولونها وبريقها وعطرها ووجودها، سيدرك مقدار حبّها له وحجم حنينها ومرارة فقدها وعمق جراحها، سيدرك وسيعلم، لكنّه كالأبله لن يأتي.

* * * * *

مرّت الأيّام بسرعة البرق، والحرب تأكل الأخضر واليابس، تحصد أرواحاً لا ذنب لها، فيما تبقي على من تسبب في هذه الحرب، ليحلو له اللعب في هذا البلد وكأنها خلقت مسرحاً وملعباً.

انقطعت أخبارها عنه، حاول مراراً الاتصال بها دون جدوى، خاف عليها من حربٍ لن تكون رحيمة بها، خاف عليها من ظلم مالك ومجتمعه، بدأ يهلوس بها ليلاً ونهاراً، يحلم بها كلّ حين، يرسم طريق العودة إليها، ويفكّر في الدقيقة ستّين مرّة، يسأل نفسه: ماذا عساها تفعل في غيابي؟

لم يستطع تحمّل البعد عنها أكثر من ذلك، فالحرب وصلت إلى مدينتها، ولن ترأف بها. ترك عائلته

في القاهرة بعدما يئس من معرفة أخبارها، وعاد إليها يتشمم أخبارها كالقطّ الجائع.

رآها في المكتب ذاته بردائها الأبيض، بدت كالملاك الطاهر، رأى الذبول في عينيها، وكأنّ حرباً شرسة قد نشبت في داخلها.

أمّا هي فبمجرّد رؤية وجهه قفزت إلى أحضانه وكأنّ ماء الحياة عاد إليها، وردة ذابلة كانت، سقاها بنظرة من عينيه فتلألأت وأشرقت وعادت البسمات إلى وجهها، أنعشته وأزالت كلّ خرابٍ كان فيه.

أحيتها ابتسامته النابعة من ينبوع حبّه، ظنّت في زيارته أنّ سفنه عادت لترسو في مينائها وتقيم أشهراً في جزيرتها، لكن ظنونها دائماً تخيب حين يمنحها الوعود فقط وحين يغلق أبواب العودة جميعها في وجهها.

لامها على انقطاعها عنه، ومحاولتها الهرب منه إلى مكان لا يستطيع فيه العثور عليها، صدّقت حدسه بعد أن جلست وإياه على طرف أريكة، وأيديهما متشابكتان، أخبرته بعزمها على السفر إلى البعيد، إلى مكان لا تصلها أنفاسه، حتّى لا تكون السبب في دمار عائلته وخرابها. كان في ذاك الوقت عقلها من يتكلّم، حيثُ أخرست قلبها، ومنعتّه من التفوّه بالشوق والحنين. ودّعها ويداه تعانق راحة يدها، ثم افترقا كعادتهما دون أن يكون هناك أمل باللقاء.

غادرها وهو يوقن أن لا لقاء آخر سيجمعهما، سيفترقان للأبد وكلّ واحدٍ منهما سيترك قلبه لدى الآخر، ليحيا الاثنان بجسدين بلا قلبين، مع شخصين آخرين اختارهما لهما القدر.

لم تستطع تحمّل قسوة البلاد ورعونة حربها، خاصة بعد أن رحل أميرها عنها، أقنعت مالك أن يرحلا إلى مكانٍ أكثر أمناً، ورفضت أن تكون وجهتها هي ذات وجهة حبيبها، أرادت أن تختار مكاناً بعيداً عن قسوة الحرب تأمن فيه على أميرها الصغير.

وكان لها ما أرادت، حيثُ اقتنع مالك بكلامها بعد محاولات عديدة منها، ورحلا إلى أنقرة. فيها أقامت مع زوجها محاولة نسيان حبٍّ مرّ بها، لكن هذا الحبّ ما هو إلا محتل غاشم استوطن قلبها رافضاً الرحيل منه، أقام مستعمرات وأعلنه أرضاً تابعة له.

أكملت حياتها هناك، مالك بين نسائه وأصدقائه، وهي في أحضان الحبيب ولو على بعد مسافات كبيرة،

حيثُ عاود الاتصال بها ليطمئنّ عليها، وذلك كل ستة أشهرٍ.

عذبها غيابه في البداية، لكنها سرعان ما اعتادت على الأمر، يحادثها كل سبعة شهور مرة، يطمئنّ عليها وعلى مستعمراته في قلبها، ثم يعاود الغياب.

أدركت أخيراً أنّ أمير كمالك، مهما حصل ومهما سيحصل لن يكون لها، ضائعة في المنتصف، لا زوجها يحتويها ولا حبيبها يستطيع الاقتراب، وفي كلّ مرّة تخبره بقرار انفصالٍ جديد عن مالك يهرب منها إلى أحضان هيام ويرفض إدخالها في حياته، يرفض تدمير عائلته كرمى لها. هي غرامه الأوّل ومعشوقته الأميرة، ولكن بيته في المرتبة الأولى، لن يسمح لها بالاقتراب منه، ستبقى الحبيبة والعشيقة إلى أبد الآبدين، لكن يستحيل

الاقتران بها، حتّى وإن طلّقها مالك لن يدخلها حياته كزوجة بل سيدخلها كعشيقة يتمتّع بها متى شاء بغفلة عن القبيلة.

ظلّ مالك بعيداً عنها يلهو في ساحة غير ساحتها، غير مبالٍ بها ولا حتّى بطفله، بات أقسى مما كان عليه، إذ جرفته الغربة بعيداً عنها. كان يتذمّر من أتفه الأسباب، يهرب منها إلى عمله وأصدقائه، يهرب منها إلى غرفته طالباً الراحة فيها بعيداً عنها، وكان ممنوعاً عليها الاقتراب كي لا توقظه، يستيقظ ليأكل مما طهت يداها، يرتدي ثيابه على عجل ويصفق الباب خلفه بعد أن يخرج.

حين يعود في منتصف الليل يدخّن سيجارته، يضمّها من الخلف ويفرغ شهوته فيها دون رؤية الدموع

وهي تغسل وجهها، يهرع إلى حوض الاستحمام تاركاً إياها تستحمّ بعبرات إهماله لها، يدخل غرفته بعد أن ينهي استحمامه، يقفز على سريره ويغطّ في نومٍ عميق. بقي يتركها وحدها تصارع ذكرياتها وأحزانها، يتركها لعبرات قاسية تحرق وجنتيها، تلعن وجودها مع شخص بلا مشاعر، تلعن القبيلة وتلعن غربتها، تهرع إلى حبيبها تبثّه شكواها، فيواسيها بالحبّ والحنان.

آه لو أنّ مالك كأمير في هيامه وشوقه لها لكانت نسيت أمير أو تناسته، ولكن لا مالك منحها الاهتمام ولا أمير منحها الأمان.

سافرت معه إلى أنقرة على أمل أن تبدأ معه حياة جديدة تنسيها أميرها، وبالفعل ابتدأتها كعروس جديدة، ابتدعت معه كلام الغزل والعشق، ارتدت له أجمل

الثياب وأحلاها، صنعت من نفسها جارية تمنحه الحبّ والوفاء، لكنه رفض ذلك بقوّة وإصرار وعاملها كجارية فعلاً، فسلبها حقوقها الزوجيّة ورماها مرّة أخرى في أحضان الحبيب.

وهكذا زادت الغربة من عذابها وألمها، وباتت حائرة الفكر، خائرة القوى، إلى من تشتكي إهمال زوجها لها وعدم اكتراثه بها؟! إلى أمير؟! هي تدرك أنّه ما عاد لها. لمالك الرافض لقلبها، الذي لم يحاول يوماً الوصول إليه؟! لقد ظلّت مشتتة باحثة عن قلبٍ يحتوي آلامها.

كلّما حاولت الفرار من زوجها كانت تنجح في الفرار إلى أميرها، فحين تتصفّح دفتر حياتها لا تقرأ سوى تفاصيل حكايتهما، وكلّما تدقق في الوجوه المحيطة بها لا ترى سوى وجهه، من الأصوات لا يصلها سوى

نغم صوته، وعندما تمسك القلم لتكتب لا تكتب إلّا له. تمتلئ عيناها بالدمع شوقاً إليه، وتتمنى أن يعود الزمان إلى الوراء ساعة واحدة كي تزور أطلال عشقهما، لكنّها لن تلمح سوى بقايا من قصّة حبّ ماضية تخشى أن تسألها الطرقات عنها حين تمرّ بها.

وحين يصيبها الوهن لا تحتاج لدواء مصطنع، فهو داؤها ودواؤها وبيده شفاؤها، تحتاج فقط وجوده قربها، تعود، تختنق بدموعها وتنادي طيفه كي يحمل إليه الشوق والحنين، فلا هو يستجيب ولا طيفه.

يشتد الحنين حين يشتدّ المطر، فتشمّ عبق رائحة وجوده حولها رغم الغياب، تفرد أجنحة خيالها إليه وتحلّق في سمائه، تزرع الورود في بستان حيّه وتملأ بها أعياده، حينها فقط يتّسع الكون لأحلامها معه، تسير في

الدرب الطويل لينتهي الدرب أمامه، تغمض عينيها فيتراءى لها في ظلمة الخيال، يحتضنها ويعيد إليها الزمن لتعيش معه الحبّ مرّة أخرى، يتجدد عهدهما ويسترجعان رحيق أيامهما.

تتفقّد أعماقها فلا تجد سوى آثار بصماته، تسافر إليه، يهبط بها الخيال في أرضه، فتبحر أمواج الشوق لترسو في مينائه، يسرقها النسيان من كلّ شيء إلّا هو.

مهما فعلت ذلك وأقسمت على وفائها له تعود إلى واقعها لتجد مالك في انتظار أن تنهي عملها، تعود إليه مثقلة بالجراح، فيسرق قلبها ومشاعرها وأحلامها على مرأى منها تحت مسمّى الحلال، يقتل أمانيها وأحاسيسها ومشاعرها دون رحمة بها، يحكم عليها بالخوف والضياع

والدموع بأمر من القبيلة، تكتشف في النهاية أنّه القاضي والجلّاد، فإلى من ترفع قضيّتها؟!

لن تشعل أناملها شموعاً كي تضيء ظلمة أعماقه وهو لا يستحقّ نورها، لن تبكي أمامه؛ لأنها تعرف أن أذنيه كالطين لا يخترقهما صوت البكاء. لن تبتسم في وجهه رغماً عنها مادامت تدرك أنّ غابات البكاء في أعماقها من غرس يديه. لن تستهلك المزيد من عمرها ونور عينيها في السهر من أجله مادامت تدرك أنّه عاجز عن فهم نبضها وإحساسها، ولن تخسر صوتها بالنداء عليه كي يلتفت إليها؛ لأنها أدركت أن من أعطاها ظهره قد استغنى عن وجهها تماماً. لن تحمل فوق رأسها قربة مقطوعة وهي في طريقها إلى قلبه؛ لأنّ الماء سينتهي ولا ينتهي الطريق. لن تتظاهر بالفرح وهي

في قمّة حزنها ولن تضحك بصوت مرتفع وهي في قمّة حاجتها إلى البكاء، فالتظاهر بالفرح يؤلم أكثر من الحزن ذاته.

تغيّرت سلام كثيراً، أصبحت أنثى ناضجة وواعية، فالحياة صقلتها وعلّمتها الكثير، تجربتها في الحياة جعلت عقلها الحاكم دون قلبها، وربّما أماتت قلبها وتركتها أنثى دون قلبها تعيش. باتت لا تكترث بمكالمات أمير التي شحّت في الآونة الأخيرة. صارت تردّ عليه ببرود وكأنها ملّت من أحاجيه التي طالت طلاسمها ولم تحلّ عقدها.

سؤال واحد كان يشغلها:

أين سيوصلها دربه؟ هي تدرك مثله تماماً أن هذا الدرب مغلق، ولن يفتح مهما حدث، فعصر المعجزات قد ولّى منذ زمن وانتهى.

خاف أمير من ذاك البرود، خاف أن تطرده خارج حياتها، اتصل بها يتوسّل إليها أن تفعل ما تريد وتغيب متى شاءت ولكن ألا تخرجه من حياتها. هو لن يعيش دون قلبه وهو معها، فالحياة دون سلام لا حياة فيها، هي الطعم واللون والراحة والهروب من هموم الحياة.

أكملت حياتها بتعاسة يمتلكها رجلان، زوج يمتلك جسدها وحبيب يمتلك قلبها، لم تستطع إسعاد نفسها وهي في أحضان الزوج، ولم تستطع أن تطال أحضان الحبيب، جسدها بلا قلب في مكان، وقلبها بلا جسدٍ في مكان آخر.

قارتان منفصلتان ضمتهما، وفي كلّ ليلة يلتقي القلبان، فيتصافحان ويتعانقان تحت سماء الأحلام وفوق ثرى الخيال.

وبقي حبّهما مع وقف التنفيذ.

* * * * *

تمّت

٢٠١٨/٧/١٤

وضعنا مع بعض العلاقات كوجع الأسنان، نحاول تسكين الوجع بدواء يخفّف حدّة الألم، لكن الوجع يزداد قوّة وإصراراً على الفتك بنا، فنحاول تسكينه بدواء أقوى، ولكن تبوء محاولاتنا بالفشل، فنتعمّد جاهدين سحب عصب الحب لنشعر فقط ببعض السكينة، متناسين أنه سيغدو دون حياة، وبلا روح، نخبر أنفسنا بأن ذلك أهون من خسارته.

ونعيش على هذه الوتيرة محاولين أن نخلق لأنفسنا الراحة، لكن التسوّس كان قد أحدث ضرراً هائلاً، وسيبقى إلى الأبد يسبب لنا ألماً لا يُشفى.

في النهاية سنتخذ القرار الأصح والأسلم، وهو قلع الضرس من مكانه. سيكون القرار مؤلماً، فليس باختيارنا، ولكن لا سبيل غيره.

أحياناً قطع العلاقات بشكلٍ نهائي هو الأفضل.. بعض الآلام لا يجب التعايش معها، يجب إزاحتها من طريقنا؛ لأن بعض العلاقات لم تكتب لها الاستمرارية، والألم منها كبير، وسيفوق قدرتنا على التحمل.

يجب أن نتحلّى بالشجاعة لنطوي صفحة كانت قد جرحتنا، ونقلع الضرس قبل أن يؤلمنا، لنكمل حياتنا بسكينة وراحة بال.

من رحم الألم يولد الإبداع